# تاكيكارديا

## أمير تاج السر

نوفل

مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d

# تاكيكارديا

## سطور من سيرة

أمير تاج السر

نوفل

[مكتبة الحبر الإلكتروني](#)
[مكتبة العرب الحصرية](#)

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2019 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

**© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019**

المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: ©Tetra Images / Alamy Stock Photo
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-296-7
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-297-4

إلى سوسن إبراهيم،
دائمًا...

كي أسمّي هذا النصّ الذي يقارب السيرة إلى حدٍّ ما، فكّرت كثيرًا، وتوقّفت عند أسماء كثيرة، على عكس عادتي، إذ تولد عندي الأعمال بعناوينها ونادرًا ما أفكّر في عنوان أو أغيّر آخرَ.

أخيرًا، اعتمدت تاكيكارديا (Tachycardia)، التعبير اللاتينيّ لحالة تسارع دقّات القلب، فقد كانت الأحداث متسارعة، وقلبي معها متسارع الدقّات.

احتمالات كثيرة،
منها أنّني كنت هناك،
ولكن برئة أخرى،
وأنفاس أخرى،
وشمس رطبة وقمر ملون،
وقوس قزح مورّد الخدّين،
وعاطفة قديمة جدًّا، وحبر كتابة بديل،
وفتاة لم تُردْ أن تكون هنا أو هناك
أو داخل أيّ احتمال.

# 1

لا أذكر بالضبط تاريخ موت شريفة مختار، تلك المرأة البيضاء، الطويلة المنسّقة إلى حدٍ ما، التي كانت تعرج من قدمها اليمنى، وتتدلّى من أذنيها حلقات فضّيّة كبيرة، لكنّي أذكر جيّدًا أنّه كان في شهر أغسطس، ويوم وقفة عيد الفطر، بعد شهر طويل من الصيام الصعب في مدينة تطلّ على بحر خامد، ولها صيفها القاسي الذي يصعب تحمّله، الصيف الذي يجعلك تفكّر كثيرًا في أن تنزع جلدك تمامًا، تلقيه في مكان بعيد، وتجلس هكذا عاريًا إلّا من خلايا داخليّة رطبة.

وكالعادة، لا توجد كهرباء منتظمة، لا يوجد ماء منتظم، لا يوجد هواء تتلقّفه الرئات بسهولة، ولا حتّى بصعوبة، ولا يوجد أيّ مزاج لفعل أيّ شيء، أو ممارسة أيّ نشاط.

كنّا في وقت الظهيرة، وبعد انتهاء ساعات العمل واشتداد الحرّ، نلتفّ بخرق مبتلّة بالماء، ما تلبث أن تجفّ سريعًا، لنعيد غمرها في الماء ولفّها حول أنفسنا مجدّدًا. وفي ساعة الإفطار عند المغرب، لم نكن نتسابق إلى الأكل، كما هو يُفترض بالصائمين أن يفعلوا في أيّ مكان، بل كان سباقنا إلى شرب الماء حتّى التخمة، ثمّ مطالعة أصناف الطعام المرصوصة أمامنا، والتي تجتهد في إعدادها الأمّهات عادة، بكثير من الحسرة. وفي كلّ رمضان يأتي في الصيف، كنّا نسمع كلامًا بأنّ ثمّة فتوى أطلقت في مكان ما تجيز الفطر لمن يسكن الساحل. لكن، لا شيء يحدث في العادة. كان الناس يصومون، ويعملون بجدية في نهار الصيام، ولا يهتمّون بأيّ أخبار قد تكون حقيقيّة بالفعل، وقد تكون مجرّد إشاعات، وفي الغالب هي إشاعات.

كان عدد كبير من سكّان المدينة يفرّ في الصيف إلى العاصمة أو أقاليم أخرى قريبة وبعيدة، هواؤها أفضل، وربّما تهطل فيها أمطار خريفيّة. وهناك أيضًا من كان يسافر إلى مصر، ولندن، وباريس وسويسرا، واليونان، وحتّى إلى جزر ميرلاند، وهضبة الأناضول، لينفق جزءًا كبيرًا من الصيف هناك، ولا يعود حتّى تعود الحرارة إلى قراءة محتملة. أمّا نحن، فقد كنّا طوال أيّام الطفولة، وحتّى مطلع الصبا، نسافر ما إن تبدأ إجازة العام الدراسيّ إلى بلدتنا البعيدة في شمال السودان. كان والدي يسمّيها رحلة الالتصاق بالجذور، ويستمتع بها استمتاعًا كبيرًا، يعود صبيًّا،

يتسلّق النخل، يقص سبيط التمر، يبرك على ركبتيه ويديه، يشرب من جدول صافٍ أو معكّر لا يهمّ، يحفر في حقل هنا، ويقطع نبات البرسيم من حقل هناك، يلفّه في حُزم، يحملها على ظهره، وربّما يستخدم في تنقّله داخل البلدة، حمارًا من الحمير المتوفّرة في البيت، أو أيّ بيت مجاور، بوصفها مواصلات الريف الأكثر انتشارًا.

نحن كنّا نسمّي تلك الرحلة رحلة التخلّف. نحاول الاندماج في معطياتها ونحن نرتدي السراويل الطويلة، والقمصان القصيرة، ونعتمر الطواقي البيضَ، والصنادل الخفيفة من المطّاط، ولا نستطيع. فلم يكن يوجد أدنى ارتباط بالمدنيّة، في قرية بلا مقوّمات للحياة المتطوّرة. ولكن، في المقابل، كان كلّ شيء فيها طبيعيًّا للغاية، من الماء الذي يأتي من النيل عبر قنوات كثيرة، أو يستخرج من آبار نظيفة إلى حدّ ما، إلى اللبن الذي يحلب مباشرة من الماعز والبقر، والمحاصيل، والخضروات التي تزرع هناك، في تربة خصبة، والأهم من ذلك لم يكن يوجد ذلك الحرّ الغريب الطارد الذي نعرفه في مدينتنا الساحليّة.

أيضًا، كانت تلك الرحلة السنويّة فرصة جيّدة للتعرف إلى شخصيّات كثيرة متباينة، وموحية، يمتلكها الريف وحده، ولا يمنح ثراءها للمدن البعيدة، مثل مغنّي الربابة الجوّالين، وصيّادي الطيور والثعالب والتماسيح، وسائقي اللواري السفريّة الذين يدخلون القرى ملوكًا أو أمراء، تهلّل لهم الوجوه، وتنسج حولهم الأساطير، وتركض خلفهم أحلام البنات، إلى كثير من الظواهر التي لا تغشى المدن، مثل ظاهرة غزو الجراد الصحراويّ التي شهدتها في مواسم كثيرة، وظاهرة السيل التي لا يمكن أن تمّحي من الذاكرة أبدًا، السيل الذي يأتي جبّارًا ومذهلًا، وأسطوريًّا، من العدم، يهشّ الدنيا كلّها أمامه، ويلقي بهياجه في النهر.

في تلك الأيّام، كنت أعمل في قسم النساء والتوليد في المستشفى الحكوميّ، مساعدًا لرئيسه، ومسؤولًا عن تلقّي الكثير من الوعكات والمخاطر، وخامات فوران الدم.

قسم لم أختره حقيقة، ولم أحُم حوله أبدًا، ولكن اختارته ظروف معينة، تلك التي تلت إضراب الأطبّاء الكبير أواخر ثمانينيّات القرن الماضي، حين تبعثرت الوظائف الطبّيّة فجأة بدخول بعض الأطبّاء إلى السجن، وانتقال بعضهم إلى مدن أخرى قريبة وبعيدة، وتشرّد آخرين في الشوارع.

وبالرغم من أنّني أمضيت أيامًا عدّة في السجن المركزيّ، بزعم أنّني كنت من المحرّضين على ذلك الإضراب، بينما لم أكن أعرف عنه شيئًا في الحقيقة، ولا سمعت به إلّا قبل يومين فقط من حدوثه، إلّا أنّني لم أُمسّ وظيفيًّا أبدًا، لم أطرد، ولم أعالج الفراغ في الشارع، ولم أنفَ إلى أيّ بلد بعيد، فقط وجدت نفسي رغمًا عنّي، وحين خرجت من السجن، ملتصقًا بقسم النساء والتوليد، وليس ثمّة خلاص يلوح في الأفق.

لن أتطرّق إلى أيّام السجن تلك، فلم تكن في الحقيقة قاسية، ولا امتلأت بحرمان كبير. كنّا نأكل ونشرب وندخّن بعاديّة مطلقة، وإن كان التدخين بمعدّل ثابت لا يتجاوز السيجارات العشر في اليوم. ذلك أنّ انتهاء أيّام الحبس غير معروف عادة، والتدخين كان ضرورة قصوى لهزيمة الوقت، وقتل التفكير الذي قد يتولّد في مثل تلك الأيّام الجديدة تمامًا عليّ، وعلى كلّ الزملاء لكنّها ليست كذلك على آخرين وجدناهم في الداخل أو جاؤوا ووجدونا هناك. وكان بين هؤلاء شعراء وكتّاب قصّة وصحافيّون، وموظّفون في البنوك والسكّة الحديد، ومحامون وضبّاط شرطة سابقون، ورؤساء نقابات يساريّة، ومغنّون أيضًا، وبعضهم أنفق معظم حياته، متنقّلًا من سجن إلى آخر من دون أن يفقد صلادته.

أيضًا، كان ثمّة نشاط رياضيّ يوميّ، فيه ركض في ميدان فسيح إلى حدّ ما، ولعبٍ لكرة القدم والمضرب، وفي الليل كانت تنصب ناموسيّات على الأسرّة منعًا للدغات البعوض.

كانت حقيقة أيامًا يمكن اعتبارها مرفّهة، وبدت لكثيرين أفضل من أيّام حرّية قد لا يجدون فيها ما يفعلون.

مع مرور الوقت، ومع التمرّس في العمل في قسم النساء، أصبحت من عشّاقه فعلًا. أحببت الطوارئ التي لا تنقطع أبدًا، أحببت السهر الطويل، وترقّب قدوم المواليد، وإيقاف النزيف، وإزالة عوائق الحمل، وطمأنة الأمّهات اللائي ينتظرن أن يرين ما كنّ يحملنه ويضعفهنّ لأشهر، وأيضًا أحببت تلك الحالات الإنسانيّة الكثيرة التي لم تكن لتمرّ علينا من دون أن نتفاعل معها، مثل أن نحاول التغطية بكلّ ما نملك من أدوات الستر على فتاة مسكينة أخطأت في لحظة ضعف، أو تعرّضت للإيذاء رغمًا عنها، وجاءت بحمل فضائحيّ، كأنّ نتبرّع نحن العاملين في القسم بالدم لمريضة تنزف، فرّ أهلها نتيجة الخوف من سحب دمائهم، وتركوها باهتة، تنتظر الموت إذا لم يتبرّع أحد، وأن نشارك بعض الباكين بكاءهم على مَن فقدوا، نذهب للعزاء، ويمكن جدًّا أن نجلس في السرادق المقامة، نتلقّى معهم العزاء مثل أيّ فرد حميم في الأسرة.

وما زلت أذكر ذلك الصباح المتوتّر، حين لملم عسكريّ شاب اسمه جبريل حنظل، ساقيه وفرّ من المكان مجرّد أن طالبناه بالتبرّع بالدم لزوجته التي كان اسمها كاكا كوكو، وكانت نزفت كثيرًا نتيجة إجهاض مبكر، وكان يمكن أن تموت في أيّ لحظة. أذكر كيف ذهبت ومعي زميلان آخران حديثا التخرّج إلى بنك الدم القريب من المستشفى، ومنحناها الكثير من دمائنا، فقد كانت فصيلة دمها لحسن الحظ من النوع الذي يستقبل كافة أنواع فصائل الدماء. حين أفاقت تلك المرأة من الغيبوبة، وأكلت وشربت، وتنفّست بلا تعب في الصدر، ولا رجّة في الدماغ، سألت ما إذا كنّا أخذنا دمًا من زوجها جبريل، وحين أجبنا بالنفي انشرحت.

كان الأمر على ما يبدو معتقَدًا سائدًا في قبيلتها، أنّ من يمنح الدم لأحد، يمرض أو يموت. لم يستطع العسكريّ الشاب أن يفسّر لنا الأمر، فآثر أن يفرّ حيًّا، ويعود بعد ثلاثة أيّام ليرى ما إذا كانت امرأته موجودة، أم فارقت الحياة. وكان عناق حار مصحوبًا بالبكاء، لأنّ لا أحد منهما مات، وستعود حياتهما إلى طبيعتها في ذلك البيت العشوائيّ البعيد الذي يقطنانه. بل أكثر من ذلك، ستحمل كاكا كما وعدت وهي تتمايل وتتّكئ على كتف زوجها القويّة الخشنة بثلاثة ذكور دفعة واحدة، يُسمّون بأسماء أولئك الأطباء الذين لحقوا حياتها قبل أن تفرّ.

في إحدى السنوات، طبّقت الحكومة إجراءات غريبة وغير مبرّرة على المرضى، مثل تحصيل الرسوم على التبرّع بالدم وعلى الخدمات الطبّيّة عمومًا، ومن ضمنها الجراحات حتّى لو كانت طارئة، فظهرت علامات الاستفهام والبؤس على وجوه كثيرين لا يستطيعون أن يدفعوا حتّى ثمن قوتهم اليوميّ، ويسكنون حياة في منتهى البؤس. لم نستطع إلغاء تلك القرارات في طبيعة الحال، ولكن حاولنا المساعدة في تخفيف الضرر بطرائق أخرى، كانت جيّدة، ونجحت في مؤازرة الناس.

كانت ثمّة منظّمات إنسانيّة تعمل على تحصين الأطفال ومكافحة السلّ والملاريا وسوء التغذية في القرى المنتشرة حول المدينة التي يسكنها في الغالب قبليّون مهمّشون، وتهب أحيانًا الدواء وخامات الجراحات من قطن وشاش، ومحاليل معقّمة، ومشارط جراحة. وكان أيضًا ثمّة أشخاص ميسورون يحبّون دعم المرضى وغير المرضى بشدة، ويمكن أن يموّلوا بعض الجراحات الطارئة، مثل عمليّات إيقاف النزيف والولادة القيصريّة. وكان المهدي، وهو تاجر سلع غذائيّة في الثمانين، يأتي أحيانًا متعبًا ولاهثًا، يراجع دفتر العمليّات الذي تحمله إحدى الممرّضات، ويدفع تكاليفها كلّها بلا استثناء. أيضًا كان شاشوق، صاحب مكتب الترحيل، يأتي، وكذا آخرون يتحدّثون عن فعل الخير، ويضعون فيه بصماتهم.

## 2

لم يكن القسم مجهزًا بصالات متعددة وممرّات، وأبواب يمكن فتحها وإغلاقها وتأمينها، ولا بحرّاس أمن مدرّبين ومنظّمين أمامها ليسمحوا بالدخوللأحد أو لا يسمحوا.

هو حوش صغير مقتطع من حوش المستشفى الكبير، محاط بسلك شائك قديم وصدئ، وحائط من الحجر، على جانب واحد فقط، هو ما يفصله عن قسم الأمراض النفسيّة والعقليّة، حيث مرضى الكآبة والإحباط، والفصام في شتّى أنواعه ومراحله، والذين يمكن بقليل من الشيطنة أن يفلتوا من رقابتهم الصارمة، ويتسلّقوا ذلك الحائط ليدخلوا قسمًا ناعمًا محتشدًا بالنساء النزيلات والزائرات على حدّ سواء، قد يلقون إليه نظرات زائغة فقط، ويرحلون سريعًا، وقد يرجمونه بالحجارة، إن عثروا على حجارة للرجم، وقد يعثرون على مدية هنا أو أداة حادّة أخرى هناك، يذبحون بها أحدًا.

هو باب صغير واحد، أزرق اللون، في وسط تلك الفوضى الإنشائيّة، جانبه خفير أمّيّ مسنّ، يمكن تجاوزه بكل سهولة، وتُمكن مشاحنته وشتمه أيضًا ويمكن الاشتباك معه بالأيدي، وقهره، والدخول في النهاية.

بتلك التقنيّات البدائيّة، ومع سهولة افتعال معركة كبرى أو صغرى مع الخفير المسكين، وتوابع ذلك، كنّا كثيرًا ما نعثر على متطفّلين، لم يأتوا لعيادة أحد، ولكن لمآرب أخرى، فيها الكثير من سوء السلوك، أو سوء السلوك كاملًا.

أتذكّر بشيء من الاستغراب، ما فعله عبدالعظيم شوداك الميكانيكيّ الأربعينيّ الأعرج، شبه الأصمّ، الذي عثر عليه مرّة داخل حجرة التوليد، تفوح من جلده رائحة الشحم وزيوت المحرّكات القديمة، وهو يضع على عينيه نظّارة بزجاج رقيق من تلك التي تستخدم في القراءة، وتباع في أيّ مكان، ويحيط رقبته بسمّاعة طبّيّة مشقّقة، عثر عليها كما يبدو في أحد المكاتب المفتوحة بلا رقابة، ويضع في يده اليمنى قفّازًا من المطّاط السميك لم يكن يُستخدم في الفحص النسائيّ أبدًا، ولكن غالبًا عند عمّال المجاري، وفي البيوت، لحماية اليدين عند غسيل الحلل والأطباق. كان يتنقّل بين النزيلات الغارقات في الألم والدم، بوصفه طبيبًا للنساء والتوليد، وقد راقب المكان حتى تأكّد تمامًا

من عدم وجود ممرّضة أو داية أو طبيب، ثمّ دخل. لكن، ولسوء حظّه، كانت إحدى نزيلات الغرفة، واسمها تماضر ما أذكر، من سكّان حيّه، وتسكن على بعد شارع منه، تعرّفت إليه حالما لمحته، وصرخت مازجة صراخها بأوجاع الطلق:

«شوداك... شوداك الميكانيكيّ. شوداك».

أيضًا، كانت هناك امرأة عجوز اسمها سيّدة البنات، تأتينا من حين لآخر. كانت تهوى صراخ الموجوعات ساعة الولادة، وتحرّضهن لينتحبن ويصرخن، وأحيانًا تضربهنّ على خدودهنّ أو تقرصهنّ في أيّ جزء من الجسد تجده مكشوفًا ومبعثرًا. كانت تأتي بثياب بيضٍ شبيهة بثياب الممرّضات، تغطّي وجهها بطرف ثوبها، وتعطي ممرّضات حجرة التوليد اللائي تجدهنّ إيحاء قويًّا بأنّها من دايات الأحياء البعيدة المرخّصات، وقد جاءت برفقة امرأة حامل من زبوناتها.

لم تكن مجنونة، هي فقط امرأة عجوز تهوى صيحات الوجع.

تحدّثت إلى سيّدة البنات في اليوم الذي انتبه فيه الجميع إلى وجودها في القسم، بلا أيّ صفة تؤهّلها للوجود فيه. كانت امرأة مسنّة وضئيلة إلى حدّ ما، على وجهها تلك الشلوخ التي كانت ذات يوم من صفات الجمال الكبرى التي يتغنّى بها الشعراء، ثمّ قضى على سمعتها التطوّر في الجمال، والصورة التي يسوّقها عنه الشعراء. بدت خائفة، تودّ أن تذهب إلى بيتها من دون أيّ إجراء آخر.

سألتها عن فلسفتها في تلقي الوجع، والتحريض عليه بهذه الصورة الفجّة، لكنّها لم تستطع أن تقول شيئًا، بكت كثيرًا، وانتهى الأمر.

أيضًا، كانت هناك فتاة مصابة بالفصام الاكتئابيّ، تقترف جرم تسلّق الحائط المتاخم لقسم النفسيّة باستمرار، تتسلّقه وتأتي، تترنّح أمام النساء الآمنات في عنابرهنّ، تشاركهنّ الأكل والشرب، والتسلية، والأنين أيضًا إن كان ثمّة أنين. تتمنّى لهنّ الشفاء العاجل أو الموت المباغت بحسب مزاجها أو مزاج الجنون في رأسها، وتقبّل المواليد الجدد، وأحيانًا تتعرّى، كاشفة عن سرة متّسخة، أو ثدي صغير متحفّز، أو حتّى فخذ، ثمّ تضحك عاليًا، وتعود إلى تسلّق الحائط عائدةً إلى وكر الجنون.

كان اسمها رحمة، وتسمّي نفسها رحمات، وأحيانًا خديجة، وفي أحيان أخرى نادرة، تردّد: «اسمي نيزك... اسمي نيزك».

كانت في أواخر العشرينيّات من عمرها، سمراء، وقصيرة، جميلة، ناضجة العينين برغم نظراتها المرتبكة، ملابسها ممزّقة عند البطن وأعلى الكتفين، وتفوح منها رائحة سمك لا تفارقها أبدًا.

وبالرغم من أنّ تسرّبها إلى قسم النساء والتوليد، وربّما إلى غيره من الأقسام الأخرى القريبة في حوش المستشفى، مثل الباطنيّة والأطفال والأنف والأذن والحنجرة، كان معروفًا، وأنّ سلطات

قسم النفسيّة لا بدّ ضاعفت الرقابة عليها، بحيث لا تستطيع المرور حتّى من ظلّ شجرة إلى ظلّ شجرة أخرى، ولا تتسرّب من ذهنها أي فكرة طائشة من دون أن تضبط، إلّا أنّها ظلّت تأتي باستمرار، كأنّما تملك غبارًا سحريًّا ترشّه في عيون مراقبيها، فلا يبصرون شيئًا. أو كأنّ لها أجنحة مخبّأة تحت الجلد تفردها كلّما أرادت الطيران، إلى درجة أنّها أصبحت في النهاية جزءًا عاديًّا وحيويًّا من مكوّنات قسم التوليد، خصوصًا في ساعات الزيارة التي تبدأ عصر كلّ يوم وتنتهي أوّل المساء، ويحتشد فيها الناس لعيادة نزيلات القسم.

في تلك الأوقات، كانت تمارس كلّ شيء يرد في ذهنها المضطرب، عاديًّا كان أو أخرق، ممكنًا أو مستحيلًا، ملائكيًّا أو شيطانيًّا، ابتداء من التمخّط على الأرضيّات المغسولة بالماء والمطهّر، والتسوّل الفجّ، مادّة يدًا مشقّقة وخشنة، إلى البكاء الهستيريّ، والتعرّي الكامل، في أي ركن بعيد قد تجد فيه أحدًا من الزوار.

كنت ولا أزال من هواة الشخصيّات الغريبة، تلك التي تملك ومضاتها الحميمة، وترسلها إلى مَن يستطيع أن يتلقّى.

وبرغم تعاطفي الشديد مع الفتاة رحمة، أو رحمات أو خديجة، واستيائي من أنّ عائلتها الموجودة في أحد أحياء المدينة سلختها عن لحمها تمامًا وألقتها في حفرة المجانين تلك، إلّا أنّني لم أستبعد أن تدخل بمواصفاتها أو بعض مواصفاتها مستقبلًا في أحد كتبي. ظللت أتتبّعها، أحاورها بتأنٍّ كلّما زرت عنابر النفسيّة لأيّ سبب، أو التقيتها تتخبّط في حوش القسم. سألتها مرّة عن أكثر أشياء تحبّها في الدنيا، لأحضر لها شيئًا منها، فذكرت بتلقائيّة أنّها تحبّ العنكبوت، وشوك السمك، ورائحة الخواجات التي شمّتها مرّات عدّة، حين كانت تلتصق بأفواج منهم، وهم يتمشّون في السوق أو عند شاطئ البحر.

كانت أشياء جنونيّة وأخّاذة في الوقت نفسه، فلم أسمع بشخص يعشق عنكبوتًا، أو شوكة للسمك قد تقف في حلقه وتخنقه، ولا انتبهت يومًا إلى أنّ للخواجات الذين قد يأتون للسياحة، أو يعملون في السفن وينزلون إلى شوارع المدينة وأسواقها، وبؤر التلف فيها مثل بيوت الدعارة والخمّارات، أيّ رائحة ثريّة قد تشدّ إليهم عاشقًا. بل على العكس، كانت روائحهم خليطًا من العرق المالح والخمر القويّ، وغبار الموانئ التي يشقّونها جيئة وذهابًا، ويبذرون فيها الآثام. أذكر أنّني كنت أساعد زميلة لي في العيادة العامّة ذات ليلة، حين جيء بطبّاخ أميركي في إحدى السفن الراسية في الميناء، اسمه برادلي، كان أسمر طويلًا ومزعجًا وكثير الكلام، يشكو شدًّا عضليًّا في فخذه الأيمن يعوق تحرّكه. كانت نظراته مشوّهة ونزقة، ورائحته بالضبط هي رائحة آثام لملمها من عشرات الموانئ حول العالم.

سألت رحمة: لماذا هذه الأشياء بالتحديد؟ ألا يوجد ما هو أفضل؟

ردّت بأنّها كنوز، لا يعرف قيمتها أحد، وفرّت من أمامي.

وفي مرّة أخرى، سألتها: «أليس لديك هدف في الحياة تسعين إليه؟»

قالت: «نعم، لي هدف وحيد، وهو أن أشرب دورقًا طافحًا بالكيروسين، لقد سمعت أنّه مفيد للجسم.»

كان شيئًا مؤسفًا بالفعل، أن تتحوّل فتاة جميلة، كان من الممكن أن تصبح فردًا نافعًا في المجتمع، إلى كتلة هذيان مرعبة. نعم، كانت رحمة من المرضى الخطرين على النفس والآخرين بلا شك، ولا بدّ من رعايتها جيّدًا، ولم يكن هذا يحدث مع الأسف.

كان مجرّد تذكرها للكيروسين والتغنّي بشربه، مقترَحًا خطيرًا ووصفة للضياع. هكذا فسّرته، وهكذا يمكن أن يفسّره كلّ مَن يرى تلك الملامح المضطربة، ويسمع ذلك الصوت البعيد تمامًا عن أيّ دفء، الصوت الصقيعيّ، اللامبالي.

أردت أن أسألها عن أهلها، أيّ حيّ من أحياء المدينة الواسعة يقطنون، إن كانت تستطيع أن تتذكّر، أو تخرج من تشوّشها قليلًا وتقول شيئًا، لكنّي خفت أن تتهيّج بلا معنى، وأردت أن أسألها عن حبّ ضائع، ربّما تذكر شيئًا من ملابسات ضياعه، لكنّي خفت أيضًا.

الفصام مرض كبير ووعر، وغالبًا ما يكون موروثًا، وغافيًا في جينات بعض الأشخاص، حتّى إذا ما حدث شيء مؤذٍ، أو ضغط كبير على المشاعر، نهض من غفوته واستوى مرضًا مزريًا.

كانت رحمة تمثّل للكثيرين ممّن يعملون في المكان، أو يزورونه لأيّ سبب من الأسباب، تسلية كبرى، حين تثرثر، وتضحك، وتقلّص تقاطيع وجهها، وتطرحها. تبدو مرآة حقيقيّة، تعكس خفايا النفوس المضطربة، وتشكّل مرتعًا محتملًا للشهوات إن استطاعت أن تطالها. وقد حدث مرّة أن صادفها خفير شابّ من إحدى القبائل المحلّيّة يعمل في قسم الأمراض الباطنيّة، ليلًا. كانت تتمشّى بلا وعي في حوش المستشفى، وتتسلّى بقضم أظافرها ورسم حاجبيها بقلم من أقلام الحبر السائل، استولت عليه من مكان ما. باغتها في شبه الظلمة، وجرها إلى أحد الأركان المعتمة بعنف، وحاول أن يشلّ جنونها، ويريق شهوته فيها، لكنّها صرخت، وقاومته، وانتهى الأمر بها سجينة في غرفة خاصّة في العنابر النفسيّة، إلى حين، وبالخفير الشهوانيّ، وقد نفض من مهماته الوظيفيّة، واقتيد إلى السجن.

أذكر في أحد المساءات أنّ الفتاة جاءت إلى القسم، ولم تكن وحدها هذه المرّة، كانت بصحبتها فتاة أخرى أصغر منها كثيرًا، مليحة، ورشيقة، وناعسة العينين، ترتدي ثوبًا بنفسجيًّا مطرّزًا وتحمل حقيبة يد متوسطة الحجم، بنفسجيّة أيضًا، وفي قدميها حذاء صغير، عالٍ، من الجلد.

كنت مناوبًا، وصادفت الفتاتين في حوش القسم، وحيّيتهما. قالت رحمة من دون أن أسألها عن رفيقتها: «هذه بنت جيراننا تهامة».

الفتاة الأخرى صرخت فجأة، وبصوت احتجاجيّ فجّ:

– لست تهامة ولست بنت جيرانكم.

– بل بنت جيراننا تهامة.

– لست بنت جيرانكم تهامة.

– بنت جيراننا تهامة.

كانت مبارزة حادّة بالكلام استمرّت لحظات قبل أن تشتبك الفتاتان بالأيدي، وتخدشان وجهي بعضهما بعضًا بأظافر حادّة ومسنّنة، ونتدخّل كلّنا، أنا ومن توفّر من الحاضرين في تلك اللحظة، سواء كانوا موظّفين أو زوّارًا. كنّا نفضّ نزاعًا مجنونًا وغريبًا، فرّت على إثره الفتاةالتي اسمها تهامة، أو ربّما ليس اسمها تهامة بالفعل، ولم يستطع أحد أن يستدل عليها، وبالطّبع لم يكن أيّ سؤال لرحمة عن هويّة الفتاة أو لماذا تهيجت حين سمّيت اسمًا ليس سيّئًا ولا بذيئًا، ليجدي... لم تبدُ مصابة بالفصام مثل رحمة، والمصابة بذلك الداء لا تتأنّق بالبنفسجيّ ولا تحمل حقيبة جميلة، وأيضًا لا تنتعل صندلًا من جلد غاليًا مثل الصندل الذي كانت تنتعله، وانتبهتُ لمتانته وقيمته الكبيرة، حين رفعت قدمها فجأة قبل أن تدخل المعركة، وأنزلتها على صرصور كان يزحف قربنا.

في ذلك اليوم أيضًا، جاء ممرّضو عنابر النفسيّة وحرّاسها، واقتادوا الفتاة لتختفي زمنًا هناك، قبل أن تعود بعد فترة للزخم القديم نفسه.

بعد عامين تقريبًا، وكنت أمارس العمل الروتينيّ في عيادتي المسائيّة التي كنت افتتحتها في حيّ النور الطرفيّ البعيد، زارتني الفتاة رفيقة رحمة. عرفتها على الفور، وأظنّها لم تعرفني، أو أنّها عرفتني وتجاهلت معرفتي. كانت حاملًا في الشهور الأخيرة، وتشكو من عسر الهضم، والحاجة الدائمة إلى التبوّل، وصداعًا يذهب ويعود، وعدم القدرة على المشي مسافات طويلة بلا لهاث، وهذه كلّها أعراض عاديّة ترافق الحمل في الأشهر المتقدّمة. كان معها زوجها الذي بدا سعيدًا ومنبهرًا لاقتراب موعد الولادة. فحصتها بدقّة وانتقلت إلى قراءة معلوماتها الشخصيّة في البطاقة التي عادة ما يُعدّها الممرّض عند التسجيل، ويسلّمني إيّاها عند دخول المريض. كان اسمها تهامة بالفعل، وقد انتقلت للإقامة في حيّ النور أخيرًا بعد الزواج، وكانت نشأت في حيّ آخر في الطرف الجنوبيّ من المدينة، لعلّه الحيّ الذي نشأت فيه رحمات أيضًا، قبل أن يسلخها أهلها عن لحمهم، ويتركوها هائمة في الضياع.

لم أعلّق بأيّ شيء، احتفظت باستغرابي داخلي وكتبت وصفة العلاج.

# 3

في قسم التخدير الذي يضمّ عددًا محدودًا من الفنّيّين متبايني الأعمار والنشاط، كان يعمل شابّ في حوالى الثامنة والثلاثين، أو ربّما تجاوز الأربعين قليلًا، اسمه ضراب، اسم غريب وقويّ وجلف ومتكبّر، من المؤكّد أنّه سُمّي به بلا أيّ إحساس بأنّ الولد سيكبر ذات يوم، وتصبح مناداته بهذا الاسم في أيّ مجتمع يلجه عصيّة على كثير من الناس، وأيضًا مضحكة.

وبحكم وجودي في قسم التوليد لسنوات، كنت أُخرِج إلى الحياة مواليد كثرًا أبرياء، ونظيفين إلّا من مخاط الرحم، ودم الولادة، أُسلّمهم إلى ذويهم، وأسمع في ما بعد عن أسماء جيّدة وغير جيدة قد تكون أُطلقت عليهم. مرّة، جاءت أمّ تحمل ولدًا كبير الرأس وكثير البكاء، قالت ولدته على يديك، وسمّيته باسمك، وأتيت به لينال الهديّة. فرحت بشدّة، قبّلت الولد على خدّه ورأسه، ومنحت الأمّ هديّته، وكانت أجر يوم كامل في عيادتي المسائيّة، البعيدة التي لم تكن مزدهرة تمامًا، ولا راكدة تمامًا، كانت كافية فحسب، لتعول طبيبًا في بداية الحياة. بعد ثلاثة أعوام من ذلك، شاهدت تلك الأمّ، تجرّ الولد ذاته الباكي في الطريق، وهو يأبى أن يستسلم لجرّها. كانت تصرخ، وتناديه باسم ليس لي ولا لأحد من عائلتي.

ضراب هذا كان خاملًا إلى حدّ ما في عمله، يأتي متأخّرًا في كثير من الأحيان، ويبدو لي دائمًا غير طبيعيّ، كأنّما يعاني دوارًا أو رغبة في الاستفراغ، أو ثمّة حمولة ما مربوطة إلى ظهره. سمعت مرّة أنّه يستخدم عقار الهلوسة – أكستازي، لكن لم أستطع التأكّد، وأعتقد أصلًا أنّ عقار الهلوسة كان ترفًا غير متوفّر لأحد مثل ضراب.

جاءني في إحدى الليالي، وكنتُ مناوبًا في القسم، متمدّدًا على سرير مريح في تلك الغرفة الصغيرة التي نتّخذها ملاذًا، نرتاح فيه قليلًا قبل أن نواصل العمل. كان شعره منكوشًا جدًّا، ملابسه متّسخة، لحيته قصيرة لكنّها مزعجة، وكان في يده دفتر كبير له غلاف بنّيّ، وضعه أمامه على الطاولة، وسأل: «عندك قهوة يا دكتور؟».

قلت: «نعم».

وأشرت إلى ترمس صغير موضوع على الطاولة نفسها التي وضع عليها دفتره. أخذه، صبّ القهوة في كوب زجاج متّسخ من دون أن يفكّر في غسله، تجرّعها دفعة واحدة، حكّ أنفه بظفر نصف مقصوص، وأخرج مشطًا صغيرًا كان مدسوسًا داخل شعره الكثيف، مرّره على الشعر قليلًا، ثمّ دسّه في مكانه مرّة أخرى. سأل ولاحظت ارتباكًا في صوته، كأنّه متردّد أو شبه متردّد في إلقاء السؤال: «هذه الحسناء رحمة، هل تعرف أهلها؟».

لم تقفز إلى ذهني في تلك اللحظة أيّ فتاة حسناء من معارفي تحمل اسم رحمة، ولم يخطر ببالي أبدًا أنّه يقصد تلك العصابيّة الممزّقة الثياب التي لا تفارقها رائحة السمك.

قلت: «من رحمة؟».

– الفتاة التي تقيم في قسم النفسيّة، وتأتي إليكم، أظنّها صديقتك.

لا أدري لماذا لم تعجبني كلمة صديقتك تلك، ربّما لم تبدُ لي إشارة لبقة من فنّي تخدير متعلّم إلى حدّ ما، ومن المفترض أنّه ملمّ ببعض اللباقة. كان يمكن أن يقول: من معارفك، مثلًا، يقول: تعرفها جيّدًا بحكم وجودها شبه الدائم في القسم، هكذا.

قلت:

– عفوًا... لا أعرف سوى أنّها نزيلة في قسم النفسيّة، ولم أر أحدًا من أهلها قطّ، هل سألت هناك؟

– سألت ولم يدلّني أحد، الكلّ لا يعرفون، أو يعرفون ويأبون البوح.

– لكن، لمَ تريد أهلها؟

كان سؤالي عاديًّا وبريئًا، ولم يخطر لي أن ضراب أو أيّ شخص آخر غيره، يمكن أن يحمل في قلبه خلجات عاطفيّة تخصّ فتاة عصابيّة غير مؤهّلة أصلًا لتلقّي العاطفة أو ضخّها...

في تلك اللحظة، انحنى فنّي التخدير الشابّ على الطاولة، مدّ يده إلى علبة سجائري التي كانت من ماركة بنسون آند هدجز، ومن دون استئذان تناول سيجارة منها، وأشعلها بولّاعة حمراء، مكسورة في أحد الأطراف، أخرجها من جيبه.

كانت يده ترتجف، وهو يفتح دفتره الكبير، ويقرأ بصوت ليس أقلّ رجفة من يده:

يا معشوقة القلب. يا هائمة.

يا سيدة الأرض كلها،

أنت خضراء والوجود أخضر.

أنت بيضاء والوجود أبيض.

أنت مشرقة والوجود مشرق.

سأسألك سؤالًا:

هل لديك أحلام صغيرة،
ليدخل فيها ضراب؟
ضراب المسكين الهائم مثلك.
ضراب الذي يجلس على حافّة الحياة، يضع ساقًا على ساق،
يخدّر الناس بالكتالار، والبنتوستام، وعقاقير كثيرة سخيفة، ويوقظهم،
ويضرب كلّ يوم خدًّا جديدًا: اصح يا هذا... اصح يا هذي... قم يا عمّ.
لعلّك تستغربين،
أم إنّ المجانين لا يستغربون،
والاستغراب يحتاج لعقل؟
أنا أحبّك هكذا، مجنونة، عاقلة، بلهاء، عبيطة، أي شيء...
أنا أحبّك.
تعالي نحبّ بعضنا بصورة خطيرة يا بنت.
انتهى.

كان قد عرق بكثافة، ثمّة ماء غزير بلّل وجهه ولم يسعَ إلى مسحه.

كانت غرابة كبيرة، أن تعثر تلك الفتاة المسكينة المدهونة بواحد من أشدّ الأمراض خطورة وزعزعة للاستقرار، على عاشق مهووس يتوجّع من أجلها وينظم فيها الشعر، غاضًا بصره عن كلّ تلك النواقص التي تحملها. فتاة رثّة بالفعل، بلا زينة ولا كحل في العينين، أو أساور في اليدين، أو توكات، أو شرائط ملوّنة تمسك الشعر، أو حتّى شفتين حمراوين، يمكن أن تتلهّفان لقبلة أو أن تحتملاها، والأهمّ من ذلك كلّه، ذلك البركان المشتعل داخلها، فهي، ببساطة شديدة، يمكن أن تقتل عاشقها نفسه، وتبصق على وجهه وهو ميت، وتضحك.

كنت أعرف مشاكل الحبّ بالطبع. أعرف أنّه أعمى، وأنّه حتّى لو كان مبصرًا في بعض الحالات، قد يدعى العمى، لكن في حالة فنّيّ التخدير العاشق، بدت المسألة أكبر من ذلك، ثمّة عمى وصمم واستخفاف كبير بالخطورة.

مددت يدي إلى دفتره الأسود، كان سميكًا وثقيلًا حتّى في حمله، قلّبت صفحاته بسرعة، وكانت ممتلئة بالكتابةً تقريبًا، وثمّة محاولات متكرّرة لرسم وجه فتاة مبتسمة، أو ضاحكة، أو واسعة العينين، ربّما قصد بها رحمات لكنّها لم تكن رحمات أبدًا.

قرأت شعرًا متفرّقًا للإنكليزيّ لورد بيرون والأميركيّ ستيفن كرين، والمصريّ أحمد فؤاد نجم، وشعرًا بعاميّة ركيكة لواحد اسمه جعفر مصيبة، لم أسمع به من قبل، ولفت نظري مقطع

نثريّ صغير مكتوب بالأحمر وموضوع داخل إطار أخضر، كان غزلًا على اسم رحمة. وتكرّرت كلمات مثل الخدّ والعينين، والورد والندى، مرّات كثيرة.

كنت أقرأ بسرعة، أقرأ أشياء كثيرة، لم تبد لي مترابطة، أشياء عن الجوارب الحرير، والألبسة التي نصفها قطن ونصفها بوليستر، وحمّالات الصدر من ماركة لابيرلا، والأسى الذي قد ينمو، يتمدّد في الأحلام، والظلال التي تشبه القبور المفتوحة، ولاحظت أنّ كلمة حبّ، شطبت في مرّات كثيرة، واستبدلت بكلمة تراجيديا، كأنّه أراد أن تصبح صبغة الحب حزنًا قاتمًا...

أيضًا، لاحظت وجود رسومات لنساء وقورات، يبدون أمّهات أو جدّات في غاية الاحتشام، ولم أستطع أن أفهم أبدًا ضرورة وجود تلك الوجوه التربويّة في دفتر خصّصت صفحاته لعشق فتاة.

أغلقت الدفتر، ووضعته مكانه على الطاولة. كان ضراب في تلك الأثناء قد دخّن سيجارتين من سجائري، أو لعله دخن نصف العلبة، أو العلبة كلّها، فلم أنتبه جيّدًا لأنّ العلبة لم تعد موجودة في مكانها أصلا.

كنت أفكّر، وأستغرب، أستغرب وأفكّر! ثمّ سألت فنّيَّ التخدير فجأة، ولا أدري هل كنت أقصد أن أسأله، أم إنّ السؤال خرج وحده:

– هل تريد أن تتزوّج رحمة؟

– لا... لا...

ردّ منتفضًا:

– معقول أن أتزوّجها وهي في هذه الحالة؟

– ماذا تريد منها إذًا؟

– لا شيء... فقط أحبّها حتّى النهاية.

– ولمَ سألت عن أهلها إذًا؟

– بدافع الفضول فقط، لن أحبّ امرأة ولا يتملّكني الفضول لأعرف أهلها: هيئاتهم، أفعالهم، مستواهم الاجتماعيّ، نواياهم. كلّ شيء عنهم.

لم يبدُ لي عاديًّا أبدًا، وإيحاء الدوار والرغبة في الاستفراغ، والثقل المربوط إلى ظهره، تلك المعطيات التي كان يمنحني إيّاها، كلّما رأيته، أظنّها أصبحت واضحة الآن.

ربّما شرب عرقًا مرًّا، مقطّرًا بلا اهتمام في واحدة من الخمّارات الرخيصة المنتشرة في قاع المدينة، وربّما دخّن سيجارة ممنوعة في مكان ممنوع، وربّما عثر بالفعل على قرص وضيع من أقراص تضييع المخّ واستخدمه، لكنّه مع ذلك يبدو حيًّا الآن، وبتلك الرغبة الكبيرة في حبّ فتاة.

بدأت أتعاطف مع ضراب بجدّيّة، ووعدته متحمّسًا أن أبقى جانبه دائمًا، وأن أستمع إلى كلّ جديد يكتبه بنفسه، أو يستلفه من الكتب والصحف، والأزقّة والشوارع، ويضعه في دفتره، لكن ليس

من المفترض أن تعرف الحبيبة شيئًا عن كتابته. في الواقع، ليس من المفترض أن تحس بشيء، لأنّها إن أحسّت فربّما تتشنّج أو تهتاج.

كنت أحذّره من عاقبة اعتراض طريق رحمة، وإلقاء تلك الإفرازات المفكّكة على أذنيها، ولم يعترض. بدأ يبكي فجأة مثل أيّ عاشق يائس، ويمسح دموعه بكمّ قميصه وحين أمسك بدفتره ونهض ماضيًا، كان يترنّح قليلًا.

أظنّني لعنت الحبّ كثيرًا في ذلك اليوم، خصوصًا ذاك الذي يحلّق بلا أمل بالهبوط على قلب يتلقّى الدموع ويغسلها. لا أعرف كيف اهتدى قلب فنّيّ التخدير، وسط كلّ تلك الفوضى النسائية التي يغصّ بها المستشفى، وبالتأكيد يغصّ بها الحيّ الذي يقطنه، إلى حبيبة إن لم تكن خطأ كبيرًا، فهي تقترب من الخطإ الكبير. أكيد هو مسكين، مثلما المحبوبة نفسها مسكينة.

بعد شهر تقريبًا من تلك المقابلة الغريبة في استراحة القسم، وكنت لا أشاهد ضراب إلّا نادرًا وحين يأتي مترنّحًا لتخدير امرأة عندنا ستخضع لعملية جراحيّة، علمت أنّه أصيب بالفصام أيضًا، ليس فصامًا محتملًا يجعله ينفلت من الرقابة، ويتنقّل من مكان إلى آخر بهدوء وخفّة مثلما تفعل حبيبته، ولكن فصام عنيف، فيه هياج، وطعن بسكّين، وقفز إلى بيوت الجيران، ومحاولات اغتصاب فساتين نسائيّة منشورة على حبال الغسيل، أيضًا سمعت عن اكتسابه خاصّيّة امتلاء الفم بالبصاق، وضخّه على الناس بلا أيّ تفرقة بين طفل يرضع، وشيخ يترنّح إلى النهاية.

لم يؤتَ به إلى قسم النفسيّة في المستشفى قطّ، ورحل بعد تشخيصه من قبل أخصّائيين متمرّسين مباشرة إلى مصحّة عقليّة في أحد أطراف المدينة، فيها مرضى يشبهونه في الوسوسة، والخفقان، واحتمال توجيه الأذى إلى الناس، مصحّة بلا أيّ رعاية سوى أنّها تستطيع أن تؤوي مريضًا نفسيًّا إلى الأبد.

في أحد النهارات، وكانت مضت أربعة أشهر على وعكة ضراب، وكنت سافرت في مهمّة مدّة شهرين إلى العاصمة وعدت، صادفت رحمة في حوش المستشفى خارج قسم النساء. كانت سمنت قليلًا، وبدت لي أقصر من طولها العادي، وكانت تمشي بسرعة، وتكاد تركض، ترتدي ملابسها الخضراء الممزّقة نفسها، وفي قدميها صندل باهت من جلد قديم، ربّما كان أسود أو بنّيًّا في ما مضى، وفرّ لونه. كان على رأسها غطاء أصفر، لم أشاهدها تضعه من قبل، وبدت لي تسابق الزمن للحاق بشخص أو شيء ما. استوقفتها، مددت يدي أصافحها، فلم تلمسها، قالت ونظراتها تركض في وجهي من زاوية إلى زاوية:

– أستاذ علي... حرام عليك... ابعد.

قلت:

– أنا الدكتور، هل نسيتني؟

صرخت:

– أستاذ علي، أستاذ علي.

ثمّ انفلتت وركضت بأقصى طاقة تملكها إلى البعيد حتّى اختفت. وفي الوقت نفسه، وقبل أن أستوعب ما حدث، شاهدت بعض ممرّضي قسم النفسيّة يأتون لاهثين، كأنّهم اكتشفوا خروجها للتوّ أو كأنّها لم تكن طوال الوقت موجودة في عنابرهم.

في ذلك اليوم، لم يلحق بها أحد، ولا عثر عليها أحد في الأيّام التالية، كأنّها ارتدت وجهًا خفيًّا، وظلّت ترتديه، وتطالع به الباحثين عنها، وتضحك عاليًا. كأنّها لم تكن أصلًا موجودة، كأنّها سراب رحمة، وليس رحمة من لحم ودم.

أظنّني لم أنسها. ظللت أتذكّرها كلّما شاهدت فتاة عشرينيّة ترتدي ثوبًا أخضر. أتوقّع أن تجيء بين لحظة وأخرى، تتسلّى بمشاركة النساء الضحك أو البكاء، وتقبّل المواليد الجدد وتتعرّى وتبصق على الأرض المغسولة في قسم النساء والتوليد. لكنّها لم تجئ قطّ. كنت سأخبرها أنّ عاشقًا أشدّ جنونًا ويأسًا منها يقيم الآن على حافّة الحياة، وقد ينزلق عنها في أيّ لحظة، لعلّها تدرك أنّ هناك درسًا في الحياة اسمه الحبّ، لعلّها تبتسم بلا عاهات، لعلّها تتزيّن أو تطلب أن ترى عاشقها وتستمع إلى قصائده وهلوساته وتتأمّل تلك الوجوه المتعدّدة التي رسمها لوجهها ولم تكن أيّ منها وجهها. لكنّ كلّ ذلك لم يحدث، ولا بدا قابلًا للحدوث أبدًا. توقّعت أيضًا أن يظهر أهلها، يسألون عن أخبارها، وينبشون مع النابشين في محاولة للعثور عليها، لكنّ هذا أيضًا لم يحدث مع الأسف، كأنّ سقوطها في المرض النفسيّ كان نهاية مرّة، غير قابلة لمحاولة تحليتها بأيّ شيء.

وقد فكّرت كثيرًا في أن أبحث عن أولئك الأهل الذين تخيّلتهم، ولا أدري لماذا، أشخاصًا مصابين بالبدانة وبخمول الغدّة الدرقيّة، وربّما تضخّم في العنق، ودوالٍ في الساقين، وشخير أثناء النوم. إنّه تخيّل غريب تبادر إلى ذهني ولم أستطع أن أعثر على غيره، وهو بكلّ تأكيد صورة مجسّدة لقلّة الاكتراث وتعبّر بقوّة عنه، لكن كيف أعثر عليهم ولا يوجد عنوان متوفّر حتّى في عنبر النفسيّة، حيث كانت تقيم. أصلًا كلّ ما أعرفه عن الفتاة هو أنّها نشأت في حيّ ما في مدينة كبيرة تضجّ بالأحياء، ولا شيء آخر.

من المؤكّد أنّ المجتمع كان مترابطًا بشدّة في ذلك الوقت، وأنّ الشوكة التي تطعن جارًا في قدمه، يصل إيلامها إلى قدم جار بعيد، وأنّ أيّ لصّ يغامر بتسلّق حائط بيت ما في حيّ ما، لا يلبث أن يجد الحيّ كلّه خصمًا يطارده. لقد عشنا كلّ ذلك. جرّبنا مناصرة بنات الحيّ حين يتحرّش بهن الطريق، جرّبنا حراسة المعنى النبيل ومنع تسرّب الخسّة إليه، وجرّبنا الجري خلف اللصوص إذا ما اعتدوا على حرمة ليست حرمتنا.

لكن، أين أهل فتاة العصابيّة رحمة؟

في أحد الأيّام، قرّرت أن أزور ضراب في تلك المصحّة الخطرة التي يسكنها. لا أدري ما كان دافعي، لكنّي أحسست برغبة حقيقيّة في فعل ذلك، وكنت التقيت بأمّه حين جاءت برفقة إحدى جاراتها لتزور نزيلة عندنا، وكنت أعرفها من قبل، امرأة مسنّة، لكن قويّة، تملك مطعمًا صغيرًا لبيع السمك في سوق أحد الأحياء. سألتها عن وضعه الصحّيّ، فأخبرتني بأنّه لم يتغيّر كما أخبروها، لأنّ لا أحد يستطيع الدخول إلى تلك المصحّة غير العاملين فيها.

طلبت من أحد زملائي، وكان يعمل في قسم الجراحة، أن يرافقني، فتردّد في البداية، ثمّ وافق، وانطلقنا.

لم تكن المصحّة النفسيّة التي وضع فيها مساعد التخدير تبعد كثيرًا من المدينة. كانت أنشئت في بقعة قاحلة في الطرف الشماليّ منذ زمن بعيد، لعلّه زمن الاستعمار الإنكليزيّ، حين كان ثمّة تعاطف إنسانيّ كبير تجاه المرضى وذوي العاهات، بالرغم من الاحتلال. ونحن نقترب منها، انتبهت إلى أنّ المدينة زحفت نحوها ببيوت شعبيّة بسيطة وعشوائيّة، معظمها من الطين والخشب، بدت موزّعة بفوضى كبيرة. كان ثمّة أطفال شبه عراة يلعبون التخفّي والكرة، ونساء بثياب ملوّنة يجلسن أمام البيوت على دكك واطئة، أو يتحرّكن في المكان بلا هدف واضح، وبعض الرجال يحومون أو يرمّمون الحوائط، أو يعملون في نقل الماء بعربات صغيرة، تجرّها الحمير.

كان مجتمعًا فقيرًا جدًّا ومناسبًا في اقترابه من الكآبة والحزن في ذلك البناء الحجريّ القديم.

لم أكن في الحقيقة عاطفيًّا، ولم أستطع أبدًا أن أعثر على دوافع محدّدة خلف هذه الزيارة التي استغربها زميلي الجرّاح، وكان يجلس جانبي جامدًا، بينما أقود بتوتّر، وتقفز إلى ذهني بين لحظة وأخرى، صورة عاشق مهووس كان يدخّن بلا توقّف، ويقرأ شعرًا مهزوزًا عن عاطفة المجانين، من دفتر بنّيّ سميك، وتحوّل إلى لا أحد، حين تحرّشت به الشيزوفرينيا، وهزمته.

دخلنا بسهولة إلى المصحّة التي كان على بابها حارسان شابّان، يرتديان الملابس البلديّة، ولا تبدو على ملامحهما أيّ علامة مميّزة. كانا في الغالب من إحدى القبائل المحلّيّة، اضطلعا بمهمّة أعتبرها عسيرة، فحراسة هذا السجن النفسيّ، تبدو لي أكثر صعوبة من حراسة سجن محتشد بالإجرام.

لا أحد يعرف ما قد يحدث فجأة هنا، وما قد يطرأ على أذهان الخطرين من خطورة.

تعرّف إليّ أحد الحارسين كما يبدو، ابتسم عن أسنان بيضٍ سليمة كان يجوس خلالها مسواك من الأراك، وهو يردّد: «أنا زوج مدينة أوشيك. لعلّك لا تذكرني».

حقيقة لم أتذكّره ولم أتذكّر مدينة أوشيك حتّى، من المؤكّد أنّها مريضة كانت تحت رعايتي ذات يوم، لكنّ المرضى يأتون ويذهبون، يعودون إلى الحياة مجدّدًا أو لا يعودون، نتذكّرهم في الغالب حين يكونون عندنا وتحت البصر، ويغيبون حين لا يعودون بحاجة إلينا أو إلى ما نقدّمه.

زوج مدينة سيتعرّف إلى الطبيب، هذا ممكن جدًّا، وأحيانًا قد يتعرّف الطبيب إليه لسبب أو لآخر، لكن في الغالب سيظلّ زوجًا مجهولًا لامرأة مرّت في الحياة اليوميّة لطبيب واختفت.

كان النزلاء الذين صادفناهم قليلين، ويتفرّقون في ظلال العنابر، جالسين أو واقفين أو يهرولون ببطء وهم في أماكنهم. كان معظمهم خامدًا كأنّما حقنوا بالخمول في أشدّ معانيه. وثمّة حرّاس وممرّضون موجودون في الحقل الخطر يراقبون المكان، وفي أيدي بعضهم صحف مفرودة، أو سجائر متّقدة، أو لا شيء أبدًا. ولم يكن ثمّة طبيب واضح بين الموجودين، وإن كنت أعرف أنّ المكان بلا طبيب دائم، ويقوم الأطباء النفسيّون ومساعدوهم بزيارتهمن حين لآخر، أو حين يقتضي الأمر.

كان ضراب وحيدًا ومنزويًا بين المرضى، في ركن بلا ظلّ. تغيّر كثيرًا. غدا نحيلًا جدًّا، وطالت لحيته بصورة مستفزّة. كان يرتدي ثوبًا تقليديًّا واسعًا ومتّسخًا، وأكثر ما لفت نظريأنّ دفتره البنّيّ السميك المحتشد بالشعر والنثر كان موجودًا معه، فقد استغربت حقيقة أن يظلّ محتفظًا بدفتر، بينما حياته كلّها ضاعت.

نزلت من العربة على مسافة قريبة منه، وناديت أحد الممرّضين. عرّفته بنفسي، وأخبرته بأنّني من أقارب ضراب، وجئت أسأل عن أخباره. شرح لنا الممرّض الحالة كلّها. كان ضراب قد شُخِّص بتمعّن، وصنّف خطرًا بالفعل، يجب الاحتراس كثيرًا عند الاقتراب منه. هو يقرأ الشعر على زملائه متى عثر على ظلالهم مبعثرة هنا وهناك، ويقسم أنّ ملكة عربيّة جليلة، مغطّاة الوجه وتتعطّر بالفانيليا، تحبّه، وتزوره يوميًّا زيارات رومانسيّة...

سألني الممرّض عن معنى كلمة الرومانسية التي يسمعها كثيرًا في ظروف متباينة ولا يعرف معناها، فأوضحت له ما ظننته معناها، وما استطعت تذكّره من وصفها، لكنّه لم يستوعب جيّدًا.

اقتربت أكثر من فنّيّ التخدير الهائم، وضعت يدي على كتفه اليمنى، وسألته:

– هل تذكرني يا ضراب؟

هتف من دون أن يرفع عينيه عن دفتره:

– اللعنة... إنّه وقت حضورها... أعني الملكة... لقد جاءت.

قلب الورقة المفتوحة في الدفتر، وبدأ يتحدّث بصوت شبه هامس مبيّنًا حالة الهيام التي هو فيها، ويتمنّى لو يظلّ فيها إلى الأبد.

صرخ فجأة:

– هل تعرفين الأبد؟ هل سمعت مرّة بزقاق قذر، في المدينة القذرة، في العالم القذر، اسمه الأبد؟

ضحك:

– حسنًا... فهمت... الملكات لا يعرفن الأزقّة، ولا يغشين قذارة المدن، الملكات فوق العالم، لكن سأسمّي طفلنا المقبل: أبد، ما رأيك؟. أبد... أبد.

ضحك:

– تفضّلين اسمًا آخر؟ ما هو؟ عشعاش؟ ههههه، هذا اسم طائر جارح وشجاع، لا بأس سنسمّي الطفل عشعاش، وليكن طائرًا جارحًا وشجاعًا، وليكن.

ضحك:

– تريدين غزلًا حزينًا؟ لا... لا يا ملكة... أجيد الغزل المبتهج فقط، لا أستطيع استخراج الحزن من الفرح...

ثمّ ضحك حتّى انكفأ على وجهه. كانت ضحكته مهووسة، مؤلمة، مفجعة، كانت شركًا عظيمًا جرّ إليه الجسد كلّه ورقصه بعشوائيّة فجّة، ضحك ثلاثَ دقائق كاملة، تقطّعت فيها أنفاسه، وسعل، وابتلّ الوجه الضاحك كلّه بالدموع...

أغلق صفحة الدفتر، رفع عينيه، وكنت قريبًا منه بشدّة، يدي لا تزال على كتفه اليمنى. لاحظت أنّ قدميه مربوطتان بسلسلة من الحديد، وأيضًا أقدام النزلاء الآخرين ممّن صادفناهم في حوش المصحّة عند قدومنا، نوعٌ من الإجراء الاحترازيّ، يتّخذ في حقّ الخطرين، لإعاقة حركتهم إن تحرّكوا للأذى.

سأل بعينين لا تزالان حمراوين ودامعتين، وفيهما وميض لمع فجأة وانطفأ:

– هل ما زالت هناك؟

– مَن؟

– شجرة النيم التي عند الجيران.

– نعم، ما زالت هناك، قلت محاولًا مجاراته.

– إذًا، لتظلّ هناك دائمًا، فقد كتبت على جذعها تذكارًا جميلًا: «إلى حبيبتي الأولى والأخيرة، مع فائق التقدير».

نطق الجملة الأخيرة بقوّة. في الحقيقة، ألقى بها من حلقه، لتتدحرج في الفضاء، وتجرح سمعي. مع فائق التقدير... لشجرة النيم؟ أم للحبيبة؟ أم للشيزوفرينيا التي تقضي على كلّ ماض وحاضر ومستقبل؟ تمامًا كالحريق، كالحرب الجرثوميّة، كالكوليرا، كالطاعون، كالأزمات المتلاحقة.

كان مساعد التخدير قد نهض واقفًا عند تلك اللحظة، وقد ازدادت عيناه احمرارًا، كأنّهما استحمّتا بالدم، وأنفه مبتلّ، وثمة لعاب خفيف يودّ أن يسقط من فمه، تحدّث مرّة أخرى:

– أنتم أمريكان... أمريكان، تأكلون لحم الزرافة، قل لي يا أخ: هل لحم الزرافة طيّب؟ هل هو لذيذ؟ أنا آكل لحم الهواء وأستطعمه.

وبدأ يغنّي. صوته ليس جميلًا أبدًا، ولا يقترب حتّى من الصوت العادي الذي يمكن أن يترنّم به أيّ شخص. صوت قبيح، غريب، مكسّر وخشن، والأغنية التي انغمس في ترديدها كانت مجرّد هلوسة بلا وضوح... يغني: هه – واه – ويه... تول... باو... لاه.

وفي اللحظة التي بدأ فيها يطوّح بيديه يمينًا ويسارًا، ويحاول الركض بسلسلة الحديد في قدميه، ليسقط، نشط ممرّضان بدينان، كانا يراقبان الزيارة، انقضّا عليه، وحقنه أحدهما بسائل معكّر في الوريد، لا بدّ أنّه عقار لارجكتيل، ثمّ جراه إلى داخل العنابر.

«لا تعد مرّة أخرى يا دكتور»، صرخ أحد الممرّضين اللذين جرّا ضراب، وهو يلتفت خلفه، ويطالعني بحنق. من الواضح أنّ زيارتي أجّجت أعراضًا خطرة للعلّة عند مساعد التخدير، وقد تضيف أعباء أخرى لطاقم العمل في المصحّة.

انتهت زيارتي لضراب إذًا، وكان انطباعي الذي خرجت به منها أنّه لن يعود أبدًا ضرابًا قديمًا كما كان. هو ضراب آخر، جديد، يستحمّ في الهذيان، ولن يعرف على الأرجح مرّة أخرى أنّ ثمّة غطاء داكنًا يأتي يوميًّا في وقت محدّد، اسمه الليل، وضوءًا ساطعًا برّاقًا يأتي في وقت محدّد أيضًا، اسمه النهار، وأشياء أخرى كثيرة، هي أشياء لها أوصافها، وكيانها المختلف. حتّى أمّه بائعة السمك التي لا بدّ أنّها تحاول زيارته، وتتحرّى أخباره من الذين يدخلون ويخرجون بحكم عملهم في المصحّة، لن يستطيع التعرّف إليها، وجيرانه الذين نشأ معهم وربّما شاركهم كلّ تقلّبات الحياة في ما مضى، سيكونون جيرانًا لأشخاص آخرين، وليسوا جيرانه هو.

خرجنا من المصحّة بالطريقة نفسها، التي دخلنا بها، وعند الباب صرخ الخفير، زوج مدينة أوشيك: «هل تذكّرتني الآن يا دكتور؟ هل تذكّرتني بوضوح؟».

لم أتذكّره لا بوضوح ولا بعتمة، ولم أحاول في الحقيقة. لكنّني هززت رأسي إيجابًا وأظنّني ابتسمت، أو لم أبتسم، لا أذكر جيّدًا... كان زميلي الجرّاح واجمًا، وكنت أفكّر في مصائر غريبة لأشخاص عرفتهم، وما كنت لأرتبط بها لولا أنّني أعمل في تلك الوظيفة المرهقة.

لم أسع إلى أمّ ضراب لأخبرها بحالته، ولا هي كانت تعرف أنّني زرته أصلًا، ولا أظنّها فكّرت في أنّني قد أهتمّ بواحد مثله عمل معنا فترة، ولم يكن صديقًا، وإنّما مجرّد عامل فقط.

بعد سنوات من ذلك شاهدت ضراب، وكانت مشاهدة بائسة أيضًا، انتبهت وأنا أسير في حوش المستشفى، إلى صوت يصيح:

أمريكاني... أمريكاني.

التفتّ وكان ضراب، مربوطًا بسلسلة الحديد في قدميه، ودفتره السميك في يده، بصحبة ممرّض وحارس بلباس عسكريّ، كانا يقودانه إلى جهة ما في المستشفى، كما يبدو، أسرعت إليه وكالعادة لم يتعرف إليّ، كان يصرخ: «أمريكاني، أمريكاني».

ولا يحدّد أحدًا بالصراخ.

سألته عن آخر ما كتبه في الدفتر، فلم يردّ.

سألت الممرّض عن سبب إحضاره إلى المستشفى، فردّ: «بواسير نازفة، يحتاج إلى عمليّة على الأرجح».

اقتاداه إلى قسم الجراحة، وتابعته من بعيد، وكانت المرّة الأخيرة التي أراه أو أسمع به، ولم أعرف قط إن كان شفي من علّته، وخرج إلى الحياة، أم انتهت سنواته في ذلك المبنى القبر.

# 4

كان ثمّة مريض فصاميّ آخر موجود بيننا وموجود بشدّة. كان اسمه: اليسع، ويسمّونه: الطفل المعجزة، ربّما لأنه انتصر على انكسارات مرعبة في حياته، كما يردّد دائمًا، وربّما بلا أيّ سبب – وكثيرًا ما تُطلق الألقاب بلا سبب، أعرف متسوّلًا عجوزًا يحتلّ ركنًا مزدهرًا أمام إحدى الصيدليّات في السوق الكبير، يلقّب برائد الفضاء بينما لا يوجد على حدّ علمي ما يربط بين التسوّل وريادة الفضاء، وأحد جيراني ويعمل حدّادًا في ورشة صغيرة، كان يلقّب بهمزة الوصل، ولا أعرف له وصلًا ولا قطعًا، أيضًا حاول أحد أقاربي وكان يسكن في حيّ شعبيّ، ويزورنا كثيرًا، أن يلقّب شارعنا الذي نسكنه في حيّ اسمه الخليج، بشارع الغرام، هكذا بلا أيّ مبرّر، ولا شبهة أحداث غرامية تجري فيه، فوقفت حائلًا بينه وبين نشر اللقب.

لم يكن الطفل المعجزة مثل رحمة – رحمات، يأتي من جانب الجدار الحجري المتاخم لقسم النفسيّة، بل كان يأتي من الباب، وبطريقة عاديّة جدًّا، حيث أمضى في القسم النفسيّ حوالى الثلاثين عامًا تعرّف خلالها إلى عشرات الأطبّاء الذين تعاقبوا عليه، وصادق بعضهم، وراسلهم حين تقاعدوا أو ذهبوا إلى مدن أخرى، وأيضًا نعى الذين ماتوا منهم، بقصاصات من الورق الأبيض، كان يكتبها بخطّ منمّق رصين، ويلصقها على الحوائط في المستشفى. وقد أهّلته تلك الأقدميّة، وواقع أنّه لا يملك سكنًا آخر، وأنّ لا أحد من أهله أو معارفه يزوره أو حتّى يسأل عنه مجرّد سؤال، إلى أن يوثَق في مسألة تنقّله في المستشفى، بائعًا للبسكويت، والحقن البلاستيك، وألعاب الأطفال، والعطور الرخيصة، ومادّة الصمغ العربيّ التي قيل أنّها إكسير ملهم ضدّ كثير من العلل المزمنة، ويستخدمها المرضى والأصحّاء على حد سواء.

كان يكدّس بضاعته تلك بلا نظام في صندوق كبير من الخشب، يربطه بحزام من الجلد القويّ إلى وسطه، يتنقّل من قسم إلى قسم طوال نهار العمل، وجزءًا من المساء، وفي أوّل الليل حين تخفّ الضجّة داخل المستشفى، يعود إلى عنبر المرضى النفسيّين، يتلقّى المهدّئات المعتادة لمريض

بالفصام المزمن، وربّما يوضع رأسه تحت جهاز الصدمات الكهربائيّة باختياره، وينام، ليعود في الفجر بائعًا للأشياءَ الصغيرة الغبيّة.

كان اليسع مثل فنّيّ التخدير ضراب، شاعرًا أيضًا كما عرفت، أو كما ادّعى هو. ألقى عليَّ قصائد عدّيدة، كتبت بلهجة عاميّة جميلة وواضحة، وكان فيها شجن، وعاطفة، وحبّ فوّار، وحكايات مجنونة عن المواعيد واللقاءات، وأحيانًا شهوة وعناق. قصائد أتذكّر أنّني كنت استمعت لبعضها ملحّنًا بأصوات مغنّين شعبيّين معروفين، ومنسوبًا إلى شعراء بالتأكيد لم يكن هو أحدهم. وعندما سألته عن ذلك بصراحة، ردّ بكل بساطة: «إنّها قصائدي يا دكتور، تأكّد من ذلك، لكنّني أتركها لغيري من الأغبياء، يحصدون مجدها، لأنّني لا أحبّ الشهرة».

بالطبع، كان كلامًا بائسًا من رجل شُخِّصَ مجنونًا عصابيًّا منذ أمد بعيد، لكنّه يبدو صافي الذهن إلى درجة أن يبيع ويشتري ويتاجر بكلّ خفّة، ويستمع للغناء، ويحفظه ويدّعي تأليفه.

حكى لي أنّه يستطيع شراء شطائر الجبن من كشك دوق سبنسر الموجود في أرقى شارع في جزر هنري المتوسّطة، بكلّ سهولة، لكنّه لا يحبّ الجبن، وإن حدث وأحبّه يومًا، لن يشتري شطائر من ذلك المحلّ أبدًا، فهو مثقّف، وثوريّ يناصر متمرّدي كوبا، وهنغاريا وبحر الزراف، ومستعدّ للتنازل عن ثروته كلّها، إن قرّر حمار واحد فقط من كلّ الحمير في العالم، أنّه لا يستحق الثراء. وكانت أكثر حكاياته جنونًا تلك التي أكّد فيها أنّ أجهزة مخابرات خمس دول كبرى من بينها أميركا وروسيا، طاردته في أحد الأيّام، تريد سرقة قصيدة ألّفها في امرأة أجنبيّة اسمها أورسولا، شاهدها تلوك العلكة ذات يوم في وسط المدينة، وتعلّق بها، لكنّه لم يكن غبيًّا ليتجوّل وقصيدة بهذه الأهمّيّة في جيبه.

سألته حينذاك: «وأين تلك القصيدة يا طفل يا معجزة؟!».

ردّ: «مزّقتها وألقيت الورق في البحر، لا أريد مشاكل مع الروس والأمريكان».

كنت أغتبط بتلك الأحاديث المجنونة، أتخيّلها على الفور خامات نصوص أخّاذة، وملعونة، ترسم جمال الحياة وقبحها في الوقت نفسه، ترسم الصورة الأخرى للحلم، من دون أن ترسم صورة أولى منطقيّة. لم أسرف في مصادقة اليسع، لخوفي من تبعات مصادقته، كنت فقط أغتنم فرص تجوّله في النهار، وصندوق الأشياء الغبيّة مربوط إلى ظهره، لأحصل منه على هبة من ذلك الخيال الحرّ. وقد انتبهت إلى فصامه بصورة جدّيّة وواضحة في ذلك اليوم الذي أوصلته فيه إلى السوق، ليشتري بضاعة جديدة. كان يجلس إلى جانبي على المقعد الأماميّ للسيّارة، رائحته مثل رائحة غبار جافّ، ويداه طويلتان، وعريضتان لم تقصّ أظافرهما ربّما منذ عام أو أكثر. لم يلتفت إليَّ قط، ولا خاطبني مباشرة، لكنّه كان يحادث نفسه، أو يحادث طيفًا وهميًّا كان يرفرف في عقله

تلك الساعة، يقول: «يا دلّوعة»، ويقول: «يا ويلكم!»، مشدّدًا على نبرة الغضب، إلى درجة أنّه كوّر قبضته مرّات عدّة، وطوّح بيده بقوّة.

أنزلته في طرف السوق، قبل المحلّ الذي يشتري منه عادة بمسافة، وكانت المرّة الأولى والأخيرة التي أوصله فيها إلى أيّ مكان.

الطفل المعجزة لم يكتفِ بذلك، أي أن يبيع ويشتري، ويتخيّل أنّه يكتب الشعر الذي يردّده بكلّ نقاء، فقد سقط فجأة مثل ضراب، في عشق امرأة، وكانت معشوقته ممرّضة تقترب من سنّ الستّين. كان اسمها: حوّاء لولا، وكانت أسرتها في الأصل من الجنوب، لكنّ الممرّضة ولدت ونمت في الساحل، ولا تعرف عن الجنوب أكثر من كونه بقعة مهملة من بقع كثيرة، يتعمّد الوطن إهمالها إلى أقصى حدّ.

كانت سمراء وممتلئة الجسم، وبطيئة في التنقّل بين العنابر، وتشكو دائمًا من ألمٍ في الركبتين، إلى درجة أنّها لقّبت «الركبة» من قبل زميلاتها الممرّضات. كان من المؤكّد أن الرجل عاصرها منذ شبابه المبكر، حين كان عصابيًّا صغيرًا، وكانت ممرّضة غضّة، وغالبًا تعرّف إليها جيّدًا، حين عملت في القسم النفسيّ في بداية توظيفها، لكنّه لم يحبّها هكذا أو بالأحرى لم يجاهر بحبّه لها، وبهذه الرعونة وعدم الاحتشام، إلّا بعد أن شاخ في الشيزوفرينيا، وشاخت في العمر وتساقط حتّى شعر حاجبيها.

لقد بدا الأمر مسليًّا جدًّا لممرّضات القسم أن يشاهدن اليسع الدميم المتّسخ، وقد بدأ يغتسل، ويتعطّر بالجلامور، والريفدور، أو عطر كافن كافن ذي الرائحة المزرية، الذي يسرف مهرّبو البحر في جلبه من بعيد. أصبح يرتدي ثوبًا أكثر بياضًا من ثيابه القديمة، وفوقه صديريًّا أسود نظيفًا، ويعتمر عمامة جيّدة، لا تشبه تلك التي كان يعتمرها طوال حياته وفقدت حتّى معنى أن تكون عمامة على رأس. يمرّ على القسم، يدخل العنابر ويخرج منها، بائعًا كالعادة، إضافة إلى كونه عاشقًا مأزومًا. يحوم حول الأبواب المغلقة، حين تكون صاحبته في واحد من الأماكن التي لا يستطيع دخولها، مثل الأجنحة الصغيرة الخاصّة، وغرفة الولادة، ومجمّع العمليّات الموجود في وسط القسم ولا يسمح بالدخول إليه إلّا لمن كان لديه عمل داخله.

كانت هداياه من البسكويت، والحلوى، ورقائق البطاطا، وعيدان الصندل، والعطور الزيتيّة المعبّأة في قنانٍ زجاج صغيرة، قد أحاطت الممرّضة، التي لم يحبّها أحد من قبل قطّ، فأذهلتها، خنقتها، ومرّغتها في التفاؤل. طوال حياتها، لم تصادف أحدًا برقّته في الكلام وبقدرته على ابتكار لغة غزل جديدة، لا في حقّها ولا في حقّ غيرها. أرعبتها كثيرًا تلك الرقّة، وتدخّل في تكوين أحلامها الليليّة، ترديده القصائد المهتاجة التي كان بعضها معروفًا، وبعضها لا يعرفه أحد، مع تحريف بسيط يسمح بوضع اسم حوّاء لولا، داخلها، جعلها تتخلّى عن صوابها طواعية، ترمي به

بعيدًا، وتتزيّن بالبله وهي آتية إلى العمل. وحين قال لها في أحد الأيّام: «أريد أن أتزوّجك يا حوّاء لولا»، وعدّد لها مزايا الزواج به، ابتداء من المهر الكبير الذي سيدفعه مقدّمًا، والأكبر الذي سيتركه مؤخّرًا، إلى إمكانيّة أن يستأذن من قسم المرضى النفسيّين الداخليّين، ويأخذها في رحلة شهر عسل أسطوريّة إلى واحدة من الجزر النظيفة ذات السواحل الرائعة، فرّت من أمامه، هرولت إلى قسم النفسيّة، التقت بكلّ طبيب أو ممرّض أو حتّى فرّاش بلا قيمة وجدته هناك، وسألتهم بجدّيّة:

– هل يستطيع اليسع أن يتزوّج بالفعل، ويعيش حياة مستقرّة؟

– اليسع مَن؟ سألوها.

– اليسع المجنون، بائع الحلوى والبسكويت والعطور الزيتيّة والحقن البلاستيك، وألعاب الأطفال.

لم يبدُ أحد مصدومًا أو متعجّبًا في نظرها، كما روت لي بعد ذلك. أخبرتني بأنّ هناك من ابتسم، وهناك من ضحك، وهناك من بدا جدّيًّا يريد الابتسام أو الضحك ولا يستطيع، وأخيرًا قال أحد الأطبّاء:

– نعم، يستطيع، لكن لن يوقّع أحد أيّ تقرير يفيد بسلامته، أيضًا لن يوقّع أحد أوراق خروجه من المستشفى، إنّه في نظر الطبّ النفسيّ مريض خطر من مرضى الفصام، وإن تزوّجته، فهذا على مسؤوليّتك.

– لكنّه يخرج يوميًّا، يبيع ويشتري ويذهب إلى السوق أيضًا.

– لا علاقة لنا بالأمر، إن حدث شيء لأحد، ستكون إجابتنا أنّه فرّ من القسم.

– كيف فرّ والناس يشاهدونه منذ ثلاثين عامًا متنقّلًا في المستشفى من عنبر إلى آخر؟

– لا نعلم، صدّقينا لا نعلم.

تركتهم، واستأذنت من العمل يومًا واحدًا لتذهب إلى بلدة قريبة تبعد من المدينة ساعتين فقط، ويقيم فيها شيخ يعتقد الكثيرون بصلاحه، كما أخبرتني بعد ذلك. كانوا يقصدونه لمباركة المواليد، والدعاء بسعة الرزق، أو حتى للسلام فقط، وتبدو مطالب النساء التي لا تنتهي مثل طلب الزواج والحمل، أشياء ملحّة كثيرًا في يومه المزدحم. بالطبع، لم يكن الأمر هكذا مجّانيًّا أو عشوائيًّا، كان ثمّة مال غير محدّد تمامًا، يدفع لواحد من أعوانه وظّف خصوصًا لجمع تلك الأموال، وتسجيلها، وتحديد أوجه صرفها، وكانت في الحقيقة قروشًا بسيطة، ولكن ثمّة من يدفع بشهيّة وسخاء من الزوّار، وتقبل عطاياه.

كان حظّ حوّاء لولا سيّئًا، حين لم تعثر على الشيخ في ذلك اليوم، وكانت طوال الطريق، عالقة في سيناريو مفترض لحوارها معه، تتخيّل وجهه الصبوح كما يصفه الزائرون في ثرثراتهم – وقد

لا يكون صبوحًا على الإطلاق – تتخيّل حجم بركته التي سيظلّلها بها، إضافة إلى تلك النصيحة الغالية التي جاءت تشتريها، وتجيب بها عن السؤال: هل تتزوّج اليسع أم لا؟

قيل لها حين وصلت متوتّرة إلى بيته المحاط بأسوار عالية وأشجار كثيفة لا يعرف عمرها، والمزدحم عادة بالآتين من شتّى أماكن الوطن، قريبة كانت أو بعيدة، أنّ الشيخ في رحلة طويلة قصد بها الشمال، ليوزّع البركة هناك، ويقضي الحاجات، وليعقد قرانه على فتاة قرويّة أهديت إليه من أب تمّ شفاؤه من مرض تهيّج القولون على يديه.

كان عليها أن تعود وأن تعتمد على حدسها الشخصيّ، وفكّرت كثيرًا في إحضار الزوج المفترض إلى الشيخ ذات يوم، لعلّه يشفى من مرض العصاب. لم تكن تدري مع الأسف أنّ اليسع، وفي أثناء بعض حواراته معي، أخبرني بأنّه زار عشرات الشيوخ الذين يروّج الناس لصلاحهم، بعضهم في قاع الأرض منذ سنوات، وبعضهم لا يزال حيًّا، ولم يفده أحد، وذكر اسم شيخ الممرّضة من جملة من ذكرهم.

كان حدسها متفائلًا، ومنحازًا بشدّة إلى قبول عرض الزواج. ومن ثمّ وافقت على الزواج من اليسع، وحُدّد تاريخ قريب لإتمام كلّ شيء.

حقيقة، لم يكن الأمر يهمّني من قريب أو بعيد، ولا كنت معنيًّا بإبداء الرأي في قصّة حبّ عجوزٍ مثل هذه بطلها اثنان من القدامى، أحدهما لم يكن مؤهّلًا للخوض في المسائل الجادّة. كان شيئًا غريبًا، لكنّه ليس مستحيلًا، وقصص الحبّ تنشأ في أيّ وقت وبين أطراف لا يتوقّع حتّى أن تمتلك عواطف من أيّ نوع. أذكر مثلًا أنّ فتاة يساريّة، مناهضة للسلطة، اعتقلت ذات يوم، وأوكلت مهمّة تعذيبها إلى رجل أمن تدرّب على هدم المشاعر، فعذّبها بجهد حتّى النهاية، لكنّه امتلك تجاهها مشاعر فجأة، وعشقها، وتزوّجت منه بعد أن يبست جروحها، وأنّ مغنّية ضريرة شابّة، ظهرت في سهرة تلفزيونيّة ذات يوم غنّت فيها كثيرًا، وفي اليوم التالي تقاطرت عشرات الرسائل إلى مقدّم البرنامج الذي غنّت فيه، وكانت من عشّاق كبار وصغار على حدّ سواء، كانوا يبدون مشاعر جيّاشة في حقّ المغنّية الضريرة، وصرّح أكثر من واحد منهم، بأنّه عثر أخيرًا على فتاة أحلامه التي طالما تمنّاها، وكانت المفاجأة أنّ المغنّية الضريرة، لم تستجب لأيّ من تلك النداءات العشقيّة، لسبب بسيط هو أنّها تبحث هي الأخرى عن فتى أحلام، لم تعثر عليه بعد.

أيضًا، تبدو لي قصّة ضراب مع فتاة الشيزوفرينيا التي اختفت، واحدة من غرائب قصص العشق، خصوصًا في نهايتها، عندما ضاع العاشق بالمرض نفسه الذي ضاعت به المعشوقة من قبل.

حين سألتني حوّاء لولا عن رأيي، وغالبًا سألت آخرين غيري، كنت محايدًا جدًّا، في الردّ. خفت التحدّث بإيجابيّة، فتحدث كارثة، والتحدّث بسلبية، فلا أنجو من كره أو حقد يتوقّع أن يبزغ

في مثل تلك الأمور. لم أقل شيئًا ملهمًا أو محدّدًا، وحضرت عقد القران الذي أقيمَ في ساحة صغيرة بالقرب من بيت الممرّضة في حيّ الثورة، في الجانب الشرقيّ من المدينة. بدا العريس المفترض عاديًّا جدًّا، مثله مثل أيّ عريس آخر، على وجهه لمعة ما، في عينيه نظرات احتفال خالية من طعم الفصام العقليّ، وكانت الثياب الجديدة التي فصّلها، وارتداها، مناسبة جدًّا. حضرت عقد القران وذهبت، وكان ثمّة حفل صغير أقيم بعد ذلك في الساحة نفسها، وغنّى فيه مطرب مغمور اسمه عثمان شناكل، كان من أقارب الممرّضة، ويسعى بخطوات بطيئة إلى أن يصبح مطربًا جماهيريًّا، وقد أخبرتني ممرّضة كانت في الحفل بأنّ المغنّي الملقّب بالقرد أيضًا، كان يركض بين المدعوّين، يجرّ سلك المايكرفون خلفه، ويمارس حركات الجمباز أثناء الغناء، مثل أن يمشي بيديه، أو يزحف ببطنه، أو يتقلّب في الهواء، كلما عثر على مساحة خالية وسط الزحام، كانت ثمّة فتيات يشاركنه الرقص، وشباب يشاركونه أيضًا، ورجال مسنّون، يحاولون استعادة شيء من معطيات الماضي، بهزّ الساقين والأصابع.

الذي حدث كان غريبًا بالفعل، ولا أظنّه حدث في شهر عسل آخر لعروسين، ولن يحدث مرّة ثانية بكلّ تأكيد.

لقد انتظر اليسع حتى انتهى الحفل تمامًا، ركب درّاجة هوائيّة كانت مركونة في المكان، وانطلق عائدًا إلى المستشفى، كان الوقت تجاوز منتصف الليل حين دخل قسم النفسيّة، تلقّى صدمة كهربائيّة عاجلة، وحقنة في الوريد، من مادّة كلوروبرومازين ملك المهدّئات، وذهب إلى عنبره، ورقد.

في الصباح، استيقظ كعادته، حمل صندوقه الخشب المحتشد بالأشياء الغبيّة، وطاف به العنابر كما يطوف منذ ما يزيد على ثلاثين عامًا. لم يخطر في باله أبدًا أنّ ثمّة ممرّضة كانت بلغت سنًّا مؤلمة بلا عواطف، واعتادت ذلك، وأنّه هو من أجّج عواطفها، وهو من ناداها للزواج ومن دفع مقدّم مهرها، ثمّ تركها من دون حتّى أن يملك فضول رؤية وجهها وهي عروس مزيّنة ومرسومة بالحناء، ومن دون رؤية أشيائها الأخرى المخبّأة والمجهّزة للقائه.

أنفق اليوم كلّه يبيع الغباء، ينادي عليه بصوته المتحشرج الجافّ، وفي أوّل المساء كالعادة ذهب إلى عنبره ورقد.

بعد عشرة أيّام من ذلك، عادت الممرّضة حوّاء لولا إلى العمل. كانت منكسرة، وباهتة وقد كبرت أكثر، لم تتحدّث مع أحد، ولم يتحدّث معها أحد، وحتّى حين شاهدت اليسع بصندوقه الخشب يدخل القسم، ويصرخ: «حلوى... سرينجات ألمانيّة... عطر المسك الأول في العالم... ألعاب أطفال»، لم تشعر بأيّ رغبة في فعل أيّ شيء كما أخبرتني، ولا حتّى فكّرت في القفز على رقبته، وكسرها، ولم أكن سألومها لو فكّرت في ذلك.

بعد ذلك، أصيب اليسع بتضخّم البروستاتا المتوقّع عند عجوز في السبعين، ونجا منه بعمليّة جراحيّة دقيقة، ثمّ لدغته مرّة حمّى شوكيّة أرقدته قرابة شهر بين غياب عن الوعي وحضور أشبه بالغياب، ونجا من خطرها أيضًا. وبعد عام من ذلك وكانت الممرّضة قد حصلت على الطلاق منه بوساطة المحكمة وتقاعدت عن العمل، تعلّق بإحدى العاملات في قسم الأطفال، وكانت من إحدى القبائل المحلّيّة، صغيرة جدًّا وطموح، وفيها جمال متفرّد، غازلها بكلماته القديمة نفسها، تلك التي استخدمها في حقّ حوّاء لولا وغيرها من العابرات ببضاعته الغبيّة، لكنّها كانت عنيفة وأرعبته. ظلّ يحوم حولها من بعيد، وهو يصرخ: «حلوى، بسكويت، عسل من اليمن، سرينجات ألمانية...»، وهي لا تلتفت إليه.

وحين انتهى عملي هناك بعد كثير من الحوادث والحكايات، وقرّرت السفر إلى بعيد، كنت حزينًا من أشياء كثيرة منها فراق بعض الشخصيّات التي قد لا أراها مرّة أخرى، كان اليسع من بينها. كان شخصيّة غريبة فعلًا، شخصيّة قد تتكرّر في مكان آخر بالزخم نفسه وقد لا تتكرّر أبدًا. قبل سفري بأيّام، وقبل أن أغادر المستشفى، بحثت عنه. عثرت عليه في عنبر الأطفال، يغوي الصغار بالحلوى، ويحاول أن يلفت نظر حبيبته العنيفة.

سألته ذلك السؤال الذي كان راكدًا في حلقي منذ يوم زواجه من حوّاء لولا، وفي كلّ مرّة أقرّر أن أسأله ثمّ أصمت:

– لماذا تزوّجت لولا وهجرتها مباشرة بعد عقد القران؟

واجهني بعينيه اللتين لن تكونا أبدًا عيني رجل يعي ما يقول أو يفعل، كانتا ممتلئتين بالجنون حقيقة، وردّ:

– لم تكن من البشر يا سيّد... إنّها شيطان رجيم.

– شيطان رجيم؟... كيف عرفت ذلك؟

– أخبرتني أمّي حين خرجت من باطن الأرض في ليلة الدخلة، قالت هذه الدينكاويّة هي شيطان وستفضحك إن دخلت عليها يا ولد.

لم يكن كلامًا متّزنًا بالطبع، لكنّه أيضًا جزء من ثوابت المرض الذي يحمله، أن يكون ثمّة صوت يأتي من بعيد، ليطرح الأسئلة، أو يرسم خططًا غريبة الأطوار، يسير عليها ضحاياه.

# 5

كانت شريفة مختار امرأة في الثلاثين، بيضاء، طويلة، ومنسّقة إلى حدّ ما. كانت تعرج قليلًا من ساقها اليمنى، بسبب مضاعفات شلل الأطفال الذي كان منتشرًا في جيلها والأجيال التي سبقته، وما عاد موجودًا في السنوات الأخيرة، بسبب حملات عالميّة مكثّفة نازلته زمانًا وقضت عليه.

كانت شريفة أمًّا لولدين صغيرين، وتراجع لدينا من حين لآخر في حملها الثالث، الذي كان عاديًّا أيضًا، بأعراض حمليها السابقين نفسيهما من غثيان واستفراغ أحيانًا، وسعال جافّ يشتدّ ليلًا، انتهت بعد أن تجاوزت الشهور الأولى، وامتلأ بطنها بجنين حيّ، ينتظر ساعة خروجه.

كنت أتابعها، ويتابعها غيري من الزملاء الذين قد تجدهم في القسم حين تأتي، ولم تذهب أبدًا إلى عيادة خاصّة، بسبب شحّ الإمكانات، فقد كان زوجها عاملًا في مرفق مهمّش لا يمنح تكاليف الحياة بصورة مترفة، بل بالكاد تكاليف حياة بلا أيّ رتوش.

أخبرتني بأنّها درست حتّى بداية المرحلة الثانويّة ثمّ أقلعت عن التعلّم، وكانت وهي طالبة، تمثّل وتغنّي وتشارك بنشاط كبير في المناسبات الوطنيّة التي يُدعى إليها الطلّاب، ليكوّنوا ألوان العلم، أو يكتبوا بلادي بأجسادهم، أو يحملوا الزهور الحيّة لتقديمها إلى مسؤول متكبّر وصامت، قد يكون موجودًا في احتفال ما.

كانت تزهو بطفليها الجميلين كثيرًا، وتأتي أحيانًا بهما، تعلّمهما تقليم الأظافر، وغناء أناشيد الكورال الحماسيّة، ومصّ الآيس كريم من دون أن تتّسخ ملابسهما، وقد غرست في ذهن الأكبر منهما، وكان في الخامسة واسمه مدثر، أنّه الطبيب الذي سيجلس في مكاني ذات يوم، فانتفخ الولد بتلك الصفة، انتزع سمّاعتي الطبّيّة من حول عنقي بعنف، ووضعها على أذنيه الصغيرتين، ومدّ مقدمها إلى صدري، ضاغطًا عليه بتكبّر.

لم أكن من عشاق لهو الأطفال في أيّ حالة من حالاته، وأحس بالاستياء كثيرًا كلّما استلف طفل جزءًا من هيبة الطبيب، وتسلّى بها. وهناك أطفال لا يكتفون بسمّاعة طبّيّة، أو ميزان لقياس ضغط الدم، يحملونه في أيديهم ويستمتعون بتماوج الزئبق داخله، لكنّهم يذهبون إلى أبعد من ذلك،

كأن يصعدوا على ظهر الطبيب، أو يختطفوا نظّارته من فوق عينيه ويصرخون. لكن لا مفرّ من تقبّل كلّ شيء، وعدم التصريح بمعاناتنا، خصوصًا لأولئك الذين يظنّون الطبيب من طين آخر غير الطين الذي يكوّن الناس العاديّين، وكثرٌ منهم يتعمّدون استفزازه، ليتأكدوا إن كان الطين مختلفًا بالفعل أم لا. ومن تلك التجارب الاستفزازيّة، أنّني اضطررت مرّة لشرح كيفيّة استخدام الدواء لأحد المرضى سبع عشرة مرّة، وفي كلّ مرّة كان يعيد السؤال نفسه: «كيف أستخدمه؟». أوشك الطين مع ذلك المريض ألّا يكون مختلفًا، لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث.

قبل ستة أيّام من وقفة عيد الفطر، وفي نهار رمضانيّ قاسٍ، جاءت شريفة تشكو بوادر ألم الولادة، ولأنّها مجرِّبة، وتعرف الألم الصحيح، تميّزه من ذلك الوهميّ الذي قد تظنّه غير المجرِّبات مخاضًا حقيقيًّا، أُدخلَت إلى غرفة الولادة مباشرة.

كانت وظائفها الحيويّة كلّها جيّدة، نسبة دمها في المعدّل الطبيعيّ، أوكسجين الخلايا مزدهر ويغذّيها بترف، لا يوجد ارتفاع في الضغط أو السكّر، ولا بوادر لأيّ مشكلة قد تحدث. مكثت ساعات مع الألم، ولم يبدُ أنّ الطفل داخلها يودّ أن يطلّ، فشُخّصت بعد ذلك ولادة متعسّرة، تحتاج إلى عمليّة عاجلة.

كانت عمليّة سهلة للغاية، بلا نزيف ولا تعقيدات، ولم تستغرق أكثر من ساعة، خرجت على إثرها المريضة، واعية وجميلة، وتتلمّس أولى الخطوات في مهمّة أمومتها الجديدة.

كان المولود هذه المرّة فتاة جيّدة الوزن، وبدا أنّ الأسرة كانت في انتظارها، لأنّ زغاريد كثيفة أُطلقت من مكان ما، ولأنّ الأب رقص بعصًا كان يحملها، وعانقنا نحن طاقم التوليد بكلّ بهجة. كانت تقنيّة معرفة جنس الجنين قبل أن يولد بواسطة أشعّة السونار قد ظهرت في ذلك الحين، لكنّها كانت لا تزال مكلفة، ومن ثمّ لم يكن يلجأ إليها أحد في الغالب، كانوا ينتظرون الولادة ليهلّلوا أو يعبسوا، بحسب أمانيهم وبحسب ما كانوا ينتظرونه إن صدق أو خاب.

سُمّيت الطفلة جميلة على الفور، ولقّبت: جيجي على الفور أيضًا، وتمّت خطبتها لواحد من أطفال العائلة، لتصبحَ عروسَ المستقبل له، قبل أن تتعرّف إلى حليب أمّها، وقبل أن تظهر على وجهها أي ملامح تنبئ بفتنتها أو قبحها في المستقبل. وكانت تلك عادة سائدة في بعض العائلات، تُمارَس بجدّيّة شديدة، فمهما تكدّرت الأحوال، وتأزّمت بعض الأمور، وتغيّرت المصائر إلى الأفضل أو إلى الأسوإ، لن يرى الولد الذي تمّت خطوبته للمولودة فتاة غيرها.

كانت شريفة تقيم في غرفة نظيفة من غرف خاصّة شبه مجّانيّة يتم حجزها قبل وقت طويل، بسبب تكالب النساء عليها، لكنّ واحدة منها فرغت لحسن الحظّ في ذلك اليوم، فمُنحت لها مباشرة. كان فيها سريران، وثلاثة مقاعد كبيرة، ومروحة للهواء تعمل بكفاءة، وكان ملحقًا بها حمّام أيضًا. أقامت الأمّ وطفلتها في تلك الغرفة، ترضعها وتثرثر مع زوّارها، وتحتضن طفليها الآخرين،

تقرّبهما من جميلة. لكنّ الأمور لم تمضِ هكذا سلسة، ففي اليوم السادس، يوم وقفة عيد الفطر، وقبل أن تُزال خيوط الحرير السود من جلدها، مكان العملية، وترسَل إلى بيتها، شهقت شريفة شهقة واحدة، واتّكأت على جنبها الأيمن ورحلت.

هذا كلّ ما في الأمر.

امرأة لا تشكو من أيّ خلل، لا قبل الجراحة ولا بعدها، ولا في أيّ وقت آخر من أوقات حياتها، باستثناء شلل الأطفال الذي كان إعاقة جسديّة لم تعق الحمل، ولا عطّلت شيئًا في اشتهاء الحياة.

كنّا غير مصدّقين، ولا الزوج ولا أيّ شخص آخر صودف أن عرف تلك المرأة المتفائلة صدّق. وكان عدم التصديق في الحقيقة، صفة تلازم الموت الفجئيّ في أيّ مكان وأيّ زمان، خصوصًا حين يطال أصحّاء يُتوقّع لهم طول العمر. أيضًا، تبدو صفة تصديق الحياة، لأشخاص من المفترض أن يكونوا ماتوا بعلل تميت بلا أيّ تردّد، موضوعًا آخر شبيهًا بعدم تصديق الموت، ومضادًّا له، وفي المهن الطبّيّة، تحدث الخسارات دائمًا، وتحدث أيضًا نجاحات قد لا ينتبه إليها أحد بقدر انتباهه إلى الخسارة.

كنت أنظر إلى موت تلك الطويلة، الجميلة، البيضاء المبتهجة بطفلتها، وأتذكّر آخرين ماتوا أيضًا، وبصلف الموت وعنجهيّته نفسها. أشخاص كانوا مصابين بالربو المزمن مثلًا، ومن المفترض أن يظلّ الربو مزمنًا فقط، لكنّه استلّ فجأة سلاحًا مختبئًا داخله ليقتل به. أشخاص مصابون بالحمّى العاديّة، ومن المفترض أنّها حمّى، قد يصحبها صداع أو استفراغ، وبعض الرضوض في الجسم، لنفاجأ بأنّ ثمّة موتًا موجودًا داخل الأعراض ولم ينتبه إليه أحد، أكثر غرابة من ذلك أنّ الموت قد يختبئ داخل النجاة من الموت نفسها، حين ينجو أحدهم من حادث مروريّ قاتل، تنقلب فيه عربة، أو يحترق باص كان يستقلّه، ويقف في الطريق يراجع أفكاره، وينفض ملابسه ممّا علق بها من غبار ودم، لتأتي شاحنة مهتاجة من العدم وتقتصّ من نجاته، ويموت.

ذلك الصباح، حملوا الميتة من عنابرنا وذهبوا. لا أحد تحدّث عن شيء. لا أحد حكى عن سبب قد يكون، ولا يوجد أصلًا سبب منطقيّ لنكتبه في شهادة الوفاة. هبوط في القلب، أو الدورة الدمويّة، هذا ما يُكتَب عادة، في أيّ حالة لا تعود إلى سبب واضح للطبّ وللناس كلّهم. الذي يموت بمضاعفات السرطان، يُكتب في شهادته: مضاعفات السرطان. الذي يموت بمرض قديم في القلب، يكتب: توقّف في القلب، وهكذا. لكن التي تذهب وهي تبتسم، تداعب مولودًا جديدًا، وتمدّ له الأمومة، والثدي المترع بالحليب، لن يكتب في شهادتها، سوى هبوط في القلب.

# 6

ظهر في قسم النساء والتوليد من سمّى نفسه «مجهول»، وربط وجوده بأسئلة تخصّ شريفة مختار، المرأة التي ماتت عندنا منذ ثلاثة أشهر تقريبًا. ظهر فجأة، ليشكّل في بداية ظهوره عبئًا كبيرًا، فيه كثير من القحط والتشاؤم، وليخفّ الأمر تدريجيا، ويصبح جزءًا معتادًا من أجزاء الحياة التي نعيشها، بل ومسلّيًا وأيضًا ملهمًا في نهاية الأمر.

كنّا فرغنا للتوّ من معضلة سوسو الطرب، المرأة الغريبة التي أرهقتنا شهرين كاملين قبل أن تنكسر، وابتدأنا نتصفّح عنابرنا بوعي أكثر حتّى لا تدخلها سوسو طرب أخرى أشدّ دهاء ولعنة. ولأنّني كنت من دون أن أقصد سببًا في وجود تلك المرأة في القسم، فقد كان عليّ أن أظهر الحرص، وأظهر عدم المرونة في أيّ تعامل مستقبليّ مع آخرين، بالتالي لم يكن ينقصني أن يأتي من يُدعى مجهولًا، من العدم، ليقيم داخل مزاجي ويؤلمه لفترة.

كان الوقت في أوّل الليل، وكنت أعمل في مناوبة مشتعلة، حامية، امتلأت بالنزيف، والوجع، وتسمّم الحمل، والخوف والهيستريا، وامرأة تقيم في تشاد كما أذكر، وجاءت للولادة عند أهلها، تعسّرت ولادتها فجأة، وكان لا بدّ من عمليّة عاجلة لإنقاذها وإنقاذ ما تحمله.

أجّلت كلّ فحص آخر، ودخلنا بسرعة إلى غرفةَ العمليّات، وحين انتهينا، وانتقلت المرأة ومولودها الذي كان ذكرًا جيّد التغذية، إلى العناية العاديّة، بعد أن ثبّتت كلّ القياسات الحيويّة، وما عاد ثمّة قلق، كان الليل قد انتصف بالفعل. بدا المستشفى موحشًا، تتسلّل من عنابره أضواء شاحبة، وتسمع بعض الهمسات والضحكات لبعض الساهرين المتجمّعين في الأركان يحرسون مريضًا قد ينجو أو يموت، أو لأولئك الساهرين من العاملين في الليل، يصنعون القهوة، ويتثاءبون في وهن.

يومذاك، لم تكن المرأة التي دخلت القسم بغتة، وهي تمشي بخطوات بطيئة، مألوفة لديّ، وأزعم أنّني كنت في تلك الأيّام أتعرّف إلى معظم زائرات الليل المحتملات. أولئك النسوة المجتهدات، اللائي يعملن في مهن خانقة ساعات طويلة، ولا ينتبهن لأعراض المرض إلّا في الليل. أيضًا، هناك زوجات يائسات ومنزعجات يفتقدن الدفءَ العائليّ في غيبة أزواج ربّما كانوا

غائبين للعمل في دول بعيدة، أو موجودين، ولكن بلا أيّ تفاعل يمنحونه للأسرة. كانت ثمّة نساء مألوفات فعلًا، وفيهنّ عشر أو عشرون امرأة، نعرفهنّ بأسمائهنّ، ونعرف أين يسكنّ، وكيف يخترعن الأعراض والمضاعفات، لأيّ مرض في الدنيا، من أجل أن يخرجن في الليل. انطلاقًا من هنا، دائمًا ما أسمّي المستشفى: الحائط القصير، الذي يمكن الدخول، والخروج منه، أو عبره، من دون أيّ إثارة للشبهات، ويبدو فيه الطبيب، والممرّض أيضًا، وكلّ من يعمل من الرجال في مناوبات ليليّة، هدفًا محتملًا، لأيّ نزوة.

كانت أسمهان مثلًا التي تقيم في حيّ شعبيّ جنوب المدينة، زائرة شبه منتظمة لليل العيادة العامّة، وقد شاهدتها كثيرًا حين عملت هناك فترة من الزمن. كانت تستطيع وبسهولة شديدة، أن تخترع الربو، ونزيف الأنف، وانسداد طبلة الأذن، وحتّى جلطة القلب، وأورام الدماغ.

كانت متزوّجة من عسكريّ، سافر للعمل في الجنوب، ولا تعرف إن كان حيًّا أو مات، لكنّها تعرف كيف تصنع عالمًا آخر وهميًّا، ولو أنّه لن يكون بديلًا عن العالم الذي ضاع منها بافتقاد الزوج. أيضًا، تعرّفت في إحدى السهرات الهادئة إلى جواهر. وهذه لم تكن تخترع المرض، ولا كان عندها زوج سافر إلى بعيد، أو إخوة يقيّدون خروجها ودخولها. كانت فتاة حرّة كما تردّد دائمًا، تعيش وحيدة في شقّة صغيرة، في وسط المدينة، وترتدي أيّ شيء تعثر عليه حتّى لو كان الثوب والعمامة الرجاليّين، وتأتي حاملة ترمسي الشاي والقهوة، لتتسلّى بالدردشة مع الساهرين في ليل المستشفى، وفي الصباح، تبدو سعيدة جدًّا، وهي تغادر إلى بيتها.

المرأة التي دخلت في تلك اللحظة كانت تجاوزت الأربعين كما ينطق وجهها، بالرغم من أنّها حاولت أن تجعله غامضًا وصموتًا لا ينطق بالعمر، لما دلقت عليه من مساحيق تجميل. كانت متأنّقة للغاية، ترتدي ثوبًا أخضر مزركشًا بورد فضّة، تضع على رأسها طرحة حمراء لامعة سقطت فوق كتفيها وكشفت عن شعر بنّيّ مموج لا بدّ رعت فيه الأصباغ والدهانات لتحيله بؤرة إغواء فجّة. كانت متوسّطة الطول، نظراتها حادّة وثابتة، تلك النظرات التي يمكن أن تخدش حياء أيّ مدّعٍ للحياء، بسهولة. وأكثر ما لفت نظري في المشهد أنّها كانت تجرّ خلفها حقيبة سفر سوداء، متوسّطة الحجم، تبدو خفيفة الوزن، لأنّ المرأة لم تكن تلهث أو تعاني وهي تجرّها. دخلت إلى مكتب الفحص، حيث كنت أواجه الباب، وذهني مشتّت قليلًا، بسبب تلاحق حالات الطوارئ، وكثافة العمل واحتمالات كثيرة منها أنّني قد أمضي الليل كلّه أعمل. جلست على المقعد الذي أمامي، وقالت مباشرة من دون أن تلقي بأيّ تحيّة:

– اسمي سميّة علي، ويسمّونني سوسو الطرب، أنا مغنّية من العاصمة.

حرّكت رأسها قليلًا، ودلقت شعرها المموّج اللامع إلى اليمين، ثم الشمال، ثمّ أعادته إلى الوسط، ورفعت إحدى يديها إلى أعلى، حكّت جلد أنفها بظفر أرجوانيّ طويل، وهزّت اليد وهي

تعيدها إلى وضعها، لتنطلق زغردة أساور ذهبية وفضية كانت تخنق المعصم.

ابتسمت، وثمّة سنّ ذهبية لمعت في فكّها الأيسر.

لم أسمع بمغنّية اسمها سوسو الطرب قطّ، وحتّى بين أولئك الذين يمضون حياتهم في الغرف الداخليّة، والخمّارات المعروشة بجريد النخيل، والمحاطة بالسمعة المتدنيّة، والفجور، أولئك الذين قد يطفو بعضهم، ويعرف ويشار إليه، وأيضًا يتم تطويره، بجلبه للغناء في الأعراس، وربّما بقليل من الحظّ يمكن أن يدخل الإذاعة ويعتمد مغنيًّا رسميًّا، بكلّ جاه المغنّين الرسميّين.

سوسو الطرب لم تكن من أولئك، وبالنظر إلى عمرها، كان من المفترض أن تكون طفت على السطح منذ زمن، إن كانت فعلًا مغنّية.

قلت: «هل تملكين شريطًا غنائيًّا؟».

ضحكت، لتبرق تلك السنّ الذهبية في فكّها الأسفل: «شريط غنائيّ؟ لديّ عشرة أشرطة أيّها الطبيب الطويل العريض، أنا أشهر من نار على علم، الذي لا يعرف سوسو الطرب، لا يعرف الغناء إذًا».

قامت من مقعدها، اتّجهت إلى الباب، بصقت هناك وسعلت قليلًا، وعادت، فتحت حقيبة يد صغيرة أخرجتها من حقيبة السفر الكبيرة، تناولت منها، منديلًا حريرًا أحمر، مسحت به فمها، واستطعت أن ألمح علبة سجائر ماركة مارلبورو، تطلّ من داخل الحقيبة.

اعتذرت منها بشدّة، صنّفت نفسي جاهلًا بالغناء، قلت العمل الطبّيّ يأكل أعمارنا، ولا يعطي فرصة لمتابعة الإبداع، لكنّي على استعداد لسماع أغنياتها كلّها في أقرب وقت، وكانت كريمة جدًّا، قبلت اعتذاري، ابتسمت مرّة أخرى، وزوّدتني أسماء أربع أغنيات، هي تحبّها شخصيًّا، وتتمنّى لو يحبّها الناس كلّهم، هي أغنيات: شجرة المانجو الهلكانة، شمعة الليل السكرانة، البنت النحيفة الخفيفة والمستورة حبيبة الكلّ... كانت كلّها أسماء غريبة، لا تشبه أسماء الأغنيات، وأقرب إلى أسماء فتيات الليل القديمات، الكئيبات، أو أسماء محطّات جغرافيّة متخيّلة، لن تسمّى بها أيّ محطّة على أرض الواقع.

أردت اختصار الحديث الذي من الممكن أن يتشعّب أكثر، ويقود إلى تبعات أخرى، لا أريدها، فقد كنت في لحظتها أحلم في أن ألقي برأسي على وسادة ليّنة، ولو لنصف ساعة فقط.

انتقلت إلى الجانب العمليّ، سألت المريضة عن شكواها، تلك الشكوى التي أتت بها منتصف الليل تجرّ حقيبة سفر. قالت: «نزيف».

نزيف، إنها الشكوى الأكثر انتشارًا في قسم النساء. في الحقيقة، هي الشكوى الأسوأ التي دائما ما نعثر خلفها على تبعات كثيرة، بعضها مؤسف: أحمال غير شرعيّة، محاولات إجهاض فاشلة، قرح في الرحم، إساءات بالغة لتلك المناطق أثناء لقاء حميم.

– منذ متى لديك نزيف؟

– منذ ساعتين فقط، أحسست به وأنا آتية من العاصمة بالباص، فأتيت مباشرة من محطّة الباصات، لم أذهب إلى أهلي حتّى الآن.

كان واضحًا بالفعل أنّها قدمت من سفر، وأعرف أنّ الباصات المقبلة من العاصمة، دائمًا ما تصل قبل منتصف الليل بقليل. لن أسألها عن ركوبها الباص في تلك الرحلة الطويلة، وهي مغنّية مرموقة كما تدّعي، هناك عشرات الحيل للإفلات من أسئلة غير مرغوب فيها كهذا السؤال، وأبسط شيء سيرد إلى ذهنها أنّها لم تعثر على مقعد في طائرة.

طيّب، لن أدقّق، وسأرى مسألة النزيف.

رقدت على طاولة الفحص، كانت مبتلّة بالفعل بالنزيف، لكنّه لم يبدُ نزيفًا ملعونًا يهدّد حياتها، لم يكن مجرّد قطرات، ولم يكن سيلًا أيضًا... نزيف عادي ربّما من دورة شهريّة استمرّت برغم موعد انتهائها، وهذا ما أكّدته المريضة التي لم تكن حاملًا. في الواقع، كانت مطلّقة، كما أخبرتني. كانت معظم وظائفها الحيويّة ثابتة، في قراءات مطمئنة، مع انخفاض طفيف في ضغط الدم. أدخلتها العنبر، لترقد وسط نساء كنّ نائمات واستيقظن على رائحة حكاية جديدة، وتمت تغذيتها بمحلول وريدي وسحب عيّنة من دمها لعمل التحاليل اللازمة.

بالقرب من الفجر، انتهت معضلة اليوم الأوّل لضيافة سوسو الطرب، واستطعت أن أذهب إلى استراحة القسم، وأغفو قليلًا، حتّى يحين موعد العمل النهاريّ العادي.

# 7

كان قسم النساء والتوليد، وبرغم تلك الاختراقات التي ذكرتها، ومحاولات البعض دخوله تصيّدًا للعورات، وانسياقًا لنزوات ربّما تكون طارئة، أو ربّما من صميم سلوكهم العاديّ، يُعتبَر قسمًا محتشمًا إلى حدّ ما، بمعنى أنّ الدخول إليه في الأساس لا بدّ أن يحصل بطريقة محتشمة، وخالية من أيّ مأرب آخر. كان الزوّار في الغالب، وفيهم رجال بالطبع، يأتون بصفة كريمة، ووقورة، يزورون مريضاتهم، الراقدات في القسم الداخليّ، ويذهبون، ليعودوا أو لا يعودوا. العاملون من الرجال، وفيهم أطبّاء، ومساعدو تخدير، ومحضّرون للعمليّات، يدخلون لأنّهم يعملون في الداخل. وكان هناك أيضًا بعض الباعة الجائلين، أمثال اليسع، وآخر اسمه الصاحب متخصّص في بيع الحلوى والبهارات والعسل اليمنيّ، يحومون في العنابر بعشوائيّة مطلقة، لكنّ بضائعهم الرخيصة، التي يجلبونها حتّى سرير المرض، كانت تستهوي النساء الراقدات، والمرافقات على حدّ سواء، بالتالي لا أحد يقلّص دخولهم أو يمنعه، وقد ظل اليسع كلّ تلك السنوات، بائعًا فوضويًّا في عنابرنا، إلى درجة أنّه عشق ممرّضة، وهجرها ليلة العرس، ولم يمنع أحد دخوله، أو يبصق في وجهه لأنّه كسر عواطف كانت ستظلّ صلدة لولا أنّه كسرها.

حتّى المريضات الراقدات في القسم الداخليّ، يرقدن لأنهنّ يحملن أمراضًا تستحقّ عناية داخليّة، يمر عليهنّ الأطبّاء باستمرار لمتابعة تطوّر المرض وأثر العلاج، كما تمرّ الممرّضات باستمرار لمراجعة قياساتهنّ الحيويّة من ضغط وحرارة، ونبض وسكّر، وتمرّ العاملات لكنس المكان، أو مسح ما علق به من شوائب مرضيّة، بالمطهّر.

ثلاثة أيّام فقط على دخول سميّة علي أو سوسو الطرب إلى واحدةً من غرفنا الخاصّة الرخيصة بعد أن بكت واستعطفت، وتحدّثت عن حساسيّة مزمنة في الجلد والأنف تصيبها من روائح الناس وإحساس بالاختناق يقتلها فعلًا إن تركت وسط النساء الأخريات في العنبر العامّ، وابتدأت ملامح قسم النساء والتوليد تتغيّر، بدا أنّ مهرجانات أو احتفالات خاصّة ونزقة تقام في غرفة مريضة النزيف التي تغيّرت ملامحها أيضًا بين يوم وليلة، فبدت أصغر سنًّا، وأكثر إشراقًا.

جاءنا أرستقراطيّ معروف من سكّان المدينة، يتاجر في القماش، ويملك سلسلة من المحالّ الكبرى، عرض طلاء تلك الغرفة بالتحديد، وتزويدها ستائرَ الساتان، وتغيير ملاءات السرير بألوان تبهج النفس، وكان فيها سريران مفروشان بالطبع بأبيض المستشفيات الكئيب. قال أنّ ذلك تبرّعٌ منه لأنّ قريبته الآتية من العاصمة تقيم فيها ولا بأس أن تظلّ الغرفة بعد خروجها بمواصفاتها الجديدة نفسها، صدقة من أجل الثواب.

جاء نجّار في السبعين يملك ورشة كبرى في المنطقة الصناعيّة تباع فيها الغرف وأطقم الجلوس والسفرة، بأسعار مخبولة، وكانت معه خزانة من الخشب القويّ الجيّد المصقول بقوّة ليلائم غرفة عروس، أمر عمّاله بتركيبها فورًا وإيقافها في الغرفة المستهدفة.

ثمّ جاء صاحب محلّ لبيع الإلكترونيّات التي بدأت تغزو السوق في تلك الأيّام، بجهاز تلفزيون صغير من ماركة هيتاشي ومعه طاولة سوداء نظيفة ليوضع عليها.

جاء كثيرون بأشياء مختلفة ونبشوا في الغرفة التي لم تكن في يوم من الأيّام فاخرة ولا أظنّها كانت تحلم في أن تكون فاخرة، لتتحوّل بالفعل، في غضون أيّام معدودة، إلى أكثر الغرف مواكبة للرقيّ، وتتجشّأ من الشبع، ليس في قسمنا فحسب، ولكن في المستشفى كلّه. وفوجئت بصفة خاصّة حين شاهدت قريبًا لي تجاوز الستّين، يمتلك مطعمًا شعبيًّا في سوق من أسواق الأحياء الطرفيّة، يترنّح لاهثًا أمام الغرفة الأسطوريّة، حاملًا صندوقًا من الكرتون على رأسه وقد عبّأه كما يبدو بأصناف مختلفة من الطعام الذي يطبخ في مطعمه: فاصوليا، بامية، ملوخيّة... فاجأته بالتحيّة، فارتبك وكاد وعاء الكرتون يسقط عن رأسه، تلعثم بلا ردّ واضح، وأنزل حمولته عند الباب وابتعد، لكنّه في الحقيقة لم يذهب بعيدًا. كنت أراقبه من مكان خفيّ، وشاهدته يعود مرّة أخرى، يتلفّت حوله بوجل، ثمّ يحمل صندوق طعامه وينزلق به إلى داخل الغرفة.

كان ثمّة استياء كبير من العاملين في القسم من تلك الاقتحامات الفوضويّة الغريبة التي تعوق الفحص والعلاج، لكنّ إدارة المستشفى لم تكن ضدّ التحسين المجانيّ ذلك، حتّى لو طال غرفة واحدة، خصوصًا أنّ ثمّة وعودًا اندلقت من أفواه عدد من المشاركين في ازدهار غرفة سوسو الطرب، بأنّهم سيساهمون في تحسين أوضاع عنابر أخرى، في أقرب فرصة.

في تلك الأثناء، كانت المريضة قد خضعت لعملية تنظيف للرحم عاديّة وسلسة، وزوّدت الأدوية اللازمة لمتابعة علاج حالتها. كانت دائمة التأنّق، وشبه ضاحكة أو ضاحكة، تترنّم بمقاطع من أغنيات متردّية، بصوت لم يبدُ لي صوت مطربة أبدًا، تلقي النكات أحيانًا، ودائمًا غرفتها مزدحمة بالزوّار بحيث يضطرّ الطبيب في ساعة المرور اليوميّ المعتاد لإلقاء نظرة عجلى، وطرح سؤال واحد على المريضة، أو عدم طرح شيء، والفرار.

وأثناء مروري عليها في أحد الأيّام، كأنّي انتبهت إلى وجه قوّاد أملس، اسمه كودي، كنت رأيته من قبل، لكنّي لست متأكدًا، ولا أردت أن أتأكّد...

في أحد الأيّام، سألني رئيس القسم، وكان طبيبًا قديمًا متمكّنًا من حرفته، وفي الوقت نفسه عاشقًا للموسيقى، وكان يجيد عزف الكمان في شبابه، ويشارك مع بعض الفرق الموسيقيّة في حفلات عامّة. كان يعرف بالطبع ما يحدث في قسمه، وشاهد التغييرات التي طرأت على الغرفة، وتحدّث إلى المريضة مرّات كثيرة، أحاديث فيها جفاء لم تنتبه إليه المريضة، أو لم ترد أن تنتبه إليه. كان قد مرّ قرابة الشهر على وجودها عندنا، تخترع الأمراض بانتظام، وتتابع تغييرات الرقيّ في الغرفة، باهتمام بالغ، سألني عن وضع المريضة الصحّيّ.

قلت: «تمّ شفاؤها».

وكانت العبارة «تمّ الشفاء» من أكثر العبارات المطلوبة في المستشفيات، العبارة التي ينتظرها المرضى، بفارغ الصبر، ويتلهّفون لقراءتها على وجه الطبيب، بشكل يوميّ. كانت تبدو ملهمة فعلًا لاستعادة الأنفاس الغائبة، ومفتاحًا ذهبًا للعودة إلى الحياة العاديّة التي كانت، قبل أن يعلق أحدهم في المرض. ولطالما شاهدت مرضى، يبكون ابتهاجًا، أو يضحكون بهستيريا، أو يقفون وينفضون ثيابهم بلا معنى، حين نخبرهم بأنّ الشفاء قد تمّ، ويمكنهم الذهاب الآن. أذكر رجلًا في منتصف العمر، كان يشكو ورمًا في المثانة، وتمّ علاجه تمامًا، وفي يوم خروجه، وقف في حوش المستشفى، أخرج سلاحًا ناريًّا كان مخبّأ لديه، وأطلق النار في الهواء.

لكنّ سوسو الطرب، لن يتمّ شفاؤها بقرارٍ طبّيّ كما سيتّضح، في الحقيقة لن يتمّ شفاؤها أبدًا.

– أنت متأكّد؟

– طبعًا سيّدي، كلّ وظائفها طبيعيّة.

– إذًا، وقّع أوراق خروجها فورًا.

– حاضر، سأوقّعها الآن.

انصرف رئيس القسم، وسمعته يصفر بلحن ما، ولم يكن ذلك ليحدث أبدًا في وجود طبيب صغير أو ممرّضة، لكن يبدو أنّ حجم الفرحة كان أكبر من صرامة رؤساء الأقسام الطبّيّة، خصوصًا حين يتقدّمون في العمر.

ناديت الممرّضة المسؤولة عن العنابر، وكانت سيّدة في منتصف العمر، اسمها دلال، نشيطة، ومطيعة في العادة، وتطمح إلى أن تكون رئيسة للممرّضات كافّة. طلبت منها أن تأتي شخصيًّا بملفّ المريضة سميّة التي تسمّي نفسها سوسو الطرب، وبفضلها تعدّلت إحدى الغرف، وقفزت من غرفة من الدرجة الرابعة، إلى غرفة في منتجع. قلت سأوقّع ملفّ خروجها الآن، وعليها أن تخرج.

شهقت الممرّضة دلال، وأظنّها نظرت إليّ بفزع. بالأمس فقط كانت أخبرتني بأنّ أحد القادة العسكريّين زار سوسو الطرب، جلب لها سلّة مملوءة بأنواع مختلفة من السجائر، وجلس عندها ساعة، وأوصى بها كثيرًا.

أنا لم أرتبك. على العكس، كنت خشنًا جدًّا، فليكن، لترقد في جناح عسكريّ، أو في القاعدة العسكريّة نفسها، إن أراد القائد، لكنّ وجودها في عنابرنا انتهى.

كنت متشنّجًا وأعرف تمامًا لمَا أنا متشنج. في الحقيقة، أيّ واحد يشاهد ذلك الزخم، وتلك الشهوات الكبيرة التي تتوافد على امرأة من المفترض أنّها غريبة عن المدينة، وأيضًا ما أبلغني به الرجل المسنّ الذي يحرس البوّابة عن مريضة مزركشة ومعطّرة تغادر المستشفى أوّل الليل ولا تعود إلّا مع الفجر، كلّ ذلك جعلني أعرف وأتشنّج، وكلّ الذين يمارسون مهنة جيّدة، وحافلة بالتعاطف الإنسانيّ، سيلغون تعاطفهم عند هذا الحدّ، وسينتفضون.

أحسست بأنّني قد أنقضّ على المريضة وأخنقها إن كانت أمامي الآن. وقّعت الملفَّ بكآبة، وسلّمته إلى الممرّضة التي حملته ومضت إلى غرفة سوسو الطرب، كما هو مفترض، لتخبرها بقرار الطبيب، وتساعدها على الخروج، بحسب التعليمات.

كان نهارًا عصيبًا، توقّعت فيه أشياء كثيرة موغلة في التشاؤم، من بينها أن تقتحم القسم قوّة عسكريّة ضاربة، تمنع تحرّك المريضة من غرفتها، ومنها أنّني قد أطرد من وظيفتي فجأة بلا أيّ إيضاح، وأنّ الممرّضة دلال قد تسقط فجأة مصابة بنوبة قلبيّة.

كان عندي بعض الفراغ، قرّرت أن أمضيه في استراحة الأطبّاء العامّة، حيث يتجمّع الزملاء العاملون من كلّ الأقسام تقريبًا حين لا يكون ثمّة عمل يجب أداؤه، يثرثرون في كلّ شيء بما في ذلك مهنة الطبّ وأحوالها، وهناك من ينشئ قصص حبّ كاملة، غالبًا تتوّج بالزواج، وهناك من يغازل بلا أيّ هدف سوى الحصول على ابتسامات مشرقة من طبيبات جميلات وهادئات يتقبّلن الغزل بصدور رحبة، وهناك من ينزوي في أحد الأركان يدخّن السجائر، وأيضًا يوجد مَن يخرج مصحفًا صغيرًا من جيبه، ويقرأ في سرّه، ويستغفر.

إنّه مجتمع صغير، لكنّه مجتمع كامل، ولطالما زففنا عرسانًا من خرّيجي أوقات الفراغ في تلك الاستراحة.

ما إن دخلت، حتّى طالعني البعض بسخرية، وضحك أحدهم، بينما سمعت آخر، وكان طبيب أسنان من هواة الثرثرة، يردّد: «سوسو الطرب... يحيا الطرب».

كان من المؤكّد أنّ خبر المريضة المقبلة من العاصمة التي تدير حياة سرّيّة من عنابر قسم التوليد منذ ما يزيد على الشهر، بات خبرًا كبيرًا الآن، ولا بدّ من تصغيره، أو مسحه تمامًا من

ذاكرة المكان، وهذه الأمكنة بالذات، وأعني المستشفيات، والمدارس، وبعض المرافق الحيويّة، حسّاسة في تلقّي البشاعة، وتملك ذاكرات تحتفظ بكلّ ما هو جدير بعدم الاحتفاظ به.

قلت بغضب، ومن دون أيّ إيضاح آخر، وأنا أطالع طبيب الأسنان، أخنقه في ذهني، إنّ المريضة المعنيّة، ستخرج اليوم من القسم، وتلقى في الشارع من دون إبطاء.

– ومن سيخرجها؟

سألتني زميلة تعمل في قسم العيون، وشاهدت في عينيها نظرة مستهزئة.

– أنا سأخرجها.

– لنرَ إذًا.

ردّدت الزميلة. عدّلت غطاء رأسها الأبيض، ونهضت وانصرفت. وجلست بعد ذلك دقائق، دخّنت فيها سيجارة وتحدّثت مع زميلين في أشياء عاديّة، ثمّ خرجت لأرى إن كان قرار الخروج في حقّ المريضة قد نفّذ أم لا؟

كان ثمّة صياح، وركض، وعلامات فزع كثيرة، وتزاحم على الغرفة الفاخرة التي تسكنها سوسو الطرب، وعلمت أنّ المريضة داخلها مصابة بحالة إغماء مفاجئة.

أسرعت إلى الغرفة. كانت المرأة مبعثرة على سريرها، تتنفّس بسرعة، وبصوت متحشرج، وثمّة من يوصل أنبوبًا من الأوكسجين إلى أنفها، من يدخل خرطوشا رقيقًا لسحب السوائل من حلقها، ومن يحقن سائلًا في وريدها، ومن يطلب من المتزاحمين أن يخلوا الغرفة فورًا.

كانت حالة إغماء غير حقيقيّة، تمّت صناعتها بمهارة على خلفيّة انتهاء شهر العسل بين الفحش والقسم المحتشم، بين المغنّية الأكذوبة، والحياة التي عاشتها شهرًا وأكثر، المريضة لن تخرج من القسم، هذا مؤكّد. لن تخرج اليوم ولا بعد أسبوع أو أسبوعين أو ثلاثة.

شاركت بلا حماسة في محاولات إسعافها، وأنا أعرف أنّها تضحك في داخلها، وأنّها ستستردّ مساوئها وتتأنّق، تضع على وجهها مرطّباته، ومساحيقه التجميليّة، بمجرد أن ينفضّ ذلك الجمع من حولها.

# 8

الذي حدث كان كبيرًا.

في الحقيقة، كان أكبر من أن يخطر على بال أحد، بالرغم من أنّ بوادر حدوثه كانت موجودة، ونراها بشكل يوميّ، لكن يخيّل إلينا أنّها تفاصيل عاديّة.

في صباح مبكر من أحد الأيّام، وقبل أن تشرق الشمس تمامًا، وتحتلّ موقعها في الوجود اليوميّ، استيقظت على طرق عنيف على باب الاستراحة، وكنت نائمًا بعمق، أحلم في المال والسفر والمرأة الرائعة التي أتمنّاها. كانت المناوبة هادئة للغاية في تلك الليلة، لم يكسر هدوءها أيّ طارئ، ولم تدخل غرفة الولادة أيّ امرأة، كأنّ ثمّة اتّفاقًا سريًّا بين حوامل المدينة في ألّا يجهضن أو يلدن في تلك الليلة.

كان طرقًا إلحاحيًّا يزداد كثافة في كلّ مرة، وبدا أنّ الباب قد يسقط فجأة من جرائه. أسرعت بما تبقّى من النوم والحلم في عينيّ لأفتح الباب، وفوجئت برئيس القسم واقفًا متصلّدًا أمامي. كان يرتدي ثوبًا أبيض واسعًا، ويعتمر عمامة. أخبرني في عجالة بأنّه كان يصلّي الفجر في أحد المساجد القريبة، وثمّة هاجس ألحّ عليه أن يأتي إلى هنا، بدلًا من العودة إلى بيته.

– أي هاجس؟

غمغمت من داخل النعاس.

– ستعرف حالًا، تعال...

قال في خشونة وانطلق.

كان يمشي بسرعة اختفت معها سمة العرج البسيط التي كانت تبدو في مشيته عادة. تبعته بصعوبة، لم نعرّج على أيّ بؤرة في القسم من الممكن أن تكون اشتعلت من دون أن أدري، مثل حجرة الولادة، والعنبر الذي تسكنه نساء مهدّدات بالإجهاض والنزيف في أي لحظة. خرجنا من قسم النساء، فاتّجه الرئيس مباشرة إلى غرفة صغيرة، في وسط المستشفى، تخصّ الشرطة،

ويضعون فيها في العادة حارسًا طوال اليوم، حتى يهرع إذا ما حدث شغب أو وقع خطب، إلى تداركه. لكن، ما الخطب هذه الليلة؟

– ماذا حدث يا ريّس؟

أسأله ولا يردّ. عثرنا على العسكريّ المناوب مستيقظًا يحلّ الكلمات المتقاطعة في صحيفة محلّيّة رثّة الطباعة، وهو يردّد: كلمة من أربعة أحرف تعني محيطًا، من خمسة أحرف تعني بعثَ، اسم رئيس عربيّ سابق من كلمتين وأربعة عشر حرفًا... بينما سلاحه خامد على جراب من الجلد القديم بقربه.

أخبره رئيس القسم بكلمات سريعة مختصرة، بضرورة حضوره معنا فورًا، فألقى الجريدة من يده، ونهض من جلسته، التقط سلاحه، ومضى معنا، من دون أيّ استفسار. اصطحبنا في طريقنا أيضًا رئيس التمريض المناوب في المستشفى، وكان يجلس على مقعد أمام مكتبه يدخّن ويستمع إلى أخبار البي بي سي من راديو صغير، وثلاثة رجال يبدون أشدّاء، كانوا يلعبون الورق، تحت أحد أعمدة النور، لا بدّ أنّهم من مرافقي بعض المرضى، ويمضون وقتهم.

دخلنا القسم في ذلك الموكب الصباحيّ المتشنّج، واتّجهنا مباشرة إلى الغرفة الأسطوريّة، وهنا فهمت منبع الخطب... إنّها سوسو الطرب.

كان الدكتور رئيس القسم يملك مفاتيح إضافيّة لكل الغرف، ومن بينها غرفة المغنّية المزعومة. أخرجه من جيبه ليستخدمه في فتح الغرفة المغلقة من الداخل، وتنبعث منها رائحة بخور شبقيّ، وأصوات خافتة، فيها ضحك، وغنج، وآهات كثيرة متشعّبة، وصوت رجل يردّد: سوسو حبيبي... حبيبي... أحبّك.

إنّها بلا شكّ، أصوات الهاجس الذي جرّ رئيس القسم من المسجد، ليأتي ويسمعها ومن ثمّ يقرّر أن نقوم بتلك المداهمة.

دقيقة من الصمت المنفعل مضت، والمفتاح يتحرّك ببطء، لينفتح الباب بغتة على مشهد لم يكن يتخيّله أحد أبدًا. كان من المشاهد الواقعيّة التي من الممكن أن تحدث في أماكن كثيرة، ولكن ليس في مستشفى أبدًا. بدت المرأة مشتعلة، والرجل مشتعلًا، والمكان كلّه مشتعلًا، ولمبة صغيرة بضوء أحمر مغروسة على الحائط، تساهم في خلق السوء، بكلّ سخاء.

– انظر... هذه مريضتك التي تسكن هنا منذ شهرين، أيّها الطبيب.

قال رئيس القسم، وهو يشدّني من قميصي ويكاد يمزّقه، كأنّني كنت في بؤرة الاشتعال تلك، وكأنّني الرجل الذي اقترف المتعة في مكان ليس لاقتراف المتعة، والذي بدا أنّه سيموت رعبًا، وقد انتفض واقفًا، عيناه فزعتان، ويداه على عورته تحاولان سترها بعد أن خمدت، في حين كانت المرأة عاديّة جدًّا، وربّما باردة حتّى، وقفت أيضًا ولكن بثبات، تناولت ملابسها الداخليّة والخارجيّة

المبعثرة على أرضيّة الغرفة، وارتدتها قطعة وراء أخرى، في تأنٍّ، غير عابئة بأيّ شيء، كان بطنها ممتدًّا قليلًا إلى الأمام، وفيه خطوط متعرّجة، كان فخذاها سيّئان للغاية، بنتوءات وحفر عميقة، ولا يمتّان إلى الإغواء بأيّ صلة. انتبهت إلى حلقة معدنية لامعة، في سرّتها لم تكن موجودة حين أجرينا لها تنظيف الرحم، أيضًا كان هناك وشم صغير لقلب أخضر، قد نحت حديثًا كما يبدو، أعلى وركها الأيمن.

لا أعرف ماذا حدث بالضبط، بعد أن خرجت المغنّية المزعومة من قسمنا، مظلّلة بالفضيحة، ومحقونة بعداء النظرات، بصحبة عسكريّ وجمع من الناس، ولا حاولت أن أتابع الأمرَ أبدًا، وإن كان بعض الذين تابعوا، تحدّثوا عن سجن محتمل، وجلد فضائحيّ، بحسب القوانين السائدة، للمرأة وعشيق الليل الذي جرّته الحمّى الجنسيّة إلى عنبر في مستشفى.

كان الشيء المهمّ في تلك الحادثة حقيقة هو أنّ المرأة ذهبت، والأهمّ من ذلك أنّه أصبحت لدينا الآن غرفة ممتازة، ومريحة، وفاخرة الأثاث، يمكن أن تستغلّ بجدارة في أغراض عدّة، مثل أن تؤجّر بمبلغ جيّد لمريضات يبحثن عن الرقيّ داخل مستشفى حكوميّ، أو تخصّص استراحة إضافيّة للعاملين في القسم.

بعد أكثر من شهر، وبينما كنت أتمشّى في السوق في إحدى الأمسيات، شاهدت سوسو الطرب مجدّدًا، كانت متأنّقة بتلك الأناقة نفسها التي جاءتنا ثمّ انصرفت عنّا بها، ثوبها أزرق فاتح، حقيبة يدها زرقاء فاتحة أيضًا، وحتّى طلاء أظافرها كان أزرق منتعشًا. وكان معها شابّ في نهاية العشرينيّات، ويبدو سعيدًا أنّه بصحبة امرأة حيّة، وأنيقة مثلها، لقد قرأت عينيه سريعًا، وانتبهت إلى تلك الفرحة المندلقة.

شاهدتني بدورها بالرغم من أنّني حاولت جاهدًا ألّا أدعها تراني. اقتربت منّي بسرعة، مدّت يدها، صافحتني بودّ وضحكت بتلك السنّ الذهبية المتمكّنة، وكأنّني لمحت غمزة سريعة تأطّرت في عينها اليمنى، وتأكّدت أنّها فعلًا غمزة، حين قالت تخاطب الشابّ: «إنّه الطبيب الذي عالجني من التهاب الحنجرة، والجيوب الأنفيّة، اعذرني نسيت اسمك يا طبيب».

أضافت وهي تشير إلى الشابّ الذي مدّ يدًا باردة، وصافحني بلا أيّ تغيّر في ملامح وجهه:

«هذا زوجي زهير، إنّه مصمّم ديكور من الدرجة الأولى. نحن في شهر العسل».

لم أبارك لهما كما تقتضي العادة في مثل هذه الحالات، وانصرفت بسرعة، وأنا أفكّر في لا شيء تقريبًا. كانت طريقة مثلى لإراحة البال، أن تفكّر في لا شيء حين يقتضي الأمر، أن تفكّر في أشياء كثيرة، مرعبة.

انصرفت ولم ألتفت خلفي، ولا تساءلت عن معنى شهر العسل الذي اصطلح على وجوده، بالرغم من أنّه مجرّد فكرة طائشة، ربّما تخصّ أحدهم أو إحداهنّ، لكنّها ليست فكرة مدهشة، ولا

جديرة بالتصفيق لها، خصوصًا إن طبّقت في حالة مزرية، مثل حالة سوسو الطرب، وهذا الولد الصغير الأبله. ربّما كان العشرينيّ لا يعرفها جيّدًا، وتعرّف إليها مصادفة وتزوّجته بطريقة ملتوية، وربّما كان يعرفها، ولا يعنيه إن خاضت الليل عنده أو عند غرباء، وربّما احتمالات أخرى، لم أستطع تحديدها، ولم تكن تعنيني.

بعد شهر، عادت سوسو الطرب إلى قسمنا. جاءت تشكو نزيفًا مرّة أخرى، وأوشك أحد الزملاء الجدد أن يدخلها العنبر تحت إلحاحها المزري، وتكرارها أنّها تحسّ ببوادر إغماء، بالرغم من أنّه لم يرَ ما يستوجب دخولَها، لولا أنّني ظهرت في اللحظة المناسبة، أمسكتها من يدها، وقدتها إلى خارج القسم، من دون أن أنطق بأيّ كلمة... هكذا انتهى الأمر لدينا، لكن قطعًا بدأ في أماكن أخرى، فامرأة كهذه في إمكانها أن تصطنع حتّى عاهة مستدامة من أجل أن تستمرّ مورد شهوات غريب وعصيّ على الفهم، قطعًا انتهى دور ذلك الشابّ العشرينيّ، وسيبدأ دور الوقاحة مرّة أخرى، ومن يدري، فقد تعود إلينا في ليلة قاتمة مرّة أخرى.

# 9

من المؤكّد أنّه، وكما يوجد الهدوء في الدنيا، يوجد الصخب. توجد الحمّى وتوجد مضادّات الحمّى، والانضباط، كبر أو صغر، تقابله دائمًا فوضى محدودة حينًا وغير محدودة حينًا آخر. كلّ شيء نعرفه قد يتقاطع أو يصطدم بكلّ شيء آخر لا نعرفه، وقد تعلّمت وأنا أقرأ الكتب، أو الحياة، أو حتّى وأنا أسير في الطرق، وأدخل هنا وأخرج من هناك، وأسافر وأعود، أن أبدو جاهلًا أبدًا لأحصل على معرفة قصوى، لأنّ اليقين بامتلاك المعرفة، رفض قاطع لها. ذلك المساء الشتائيّ البعيد، كنت مسترخيًا في استراحة القسم الصغيرة المرتّبة، أقرأ رواية «ليلة المليار» للكاتبة اللامعة غادة السمّان، وكنت حصلت عليها من مرافقة إحدى المريضات اسمها زاهية، شاهدتها غارقة فيها لعدّة أيام، تقرأها في الممرّات وتحت ظلال الحوائط، وأحيانًا في حوش المستشفى، وهي متّكئة على ظهر عربة. كانت منبهرة بها وأهدتني إيّاها بعد أن فرغت من القراءة.

أنا، في الحقيقة، لم أنبهر كثيرًا بجوّ الحرب والكوابيس المسيطر على الرواية، لكني قرأتها فقط لأنّ هناك درسًا مهمًّا في الحياة اسمه القراءة، وأعتقد أنّ على الجميع أن يتلقّاه، وشخصيًّا، وبرغم كلّ مشاغلي وفي أيّ زمن مرّ بي، ألجأ إلى الكتب، وأحسّ بأنّ حياتي بلا متعة، إن لم أطالع قصّة جيّدة، أو أقتنص معلومة مهمّة كانت تختبئ في كتاب... ولا أبالغ إن قلت أنّني غزوت مكتبة البيت التي أسّسها والدي، في زمن مبكر، وغزوت مكتبات أخرى في سوق المدينة، وفي أيّ بلد آخر زرته بعد ذلك، سعيًا وراء الكتب.

كان الذي طرق الباب في تلك اللحظة ممرّض من شباب القسم الباطنيّ، أعرف عمّه، وساعدت في تعيينه ممرّضًا ليساعد في مصروفات عائلته بعد وفاة والده.

وجدته حين قطعت قراءتي وفتحت، يقف مرتبكًا عند الباب وجانبه شابّ ربّما تجاوز الثلاثين بقليل، أصلع وله شاربان خفيفان، ولحية بالكاد تظهر شعيراتٌ منها على الجلد. قال الممرّض بشيء من الحرج:

– عفوًا دكتور، وجدت هذا الأخ تائهًا في المستشفى، يسأل عنك، فأحضرته، آسف للإزعاج.

ثمّ تركه وانصرف.

كنت لا أزال داخل مزاج القراءة، أمسك بطرف قصّة حبّ في الكتاب، وأودّ أن أركض خلفها لأصل إلى نهاية، وليس من مجال لأستقبل أحدًا في الغرفة، وأصلًا لم تكن الغرفة معدّة لاستقبال الناس، وكم من مرّة حذّر رئيس القسم من استضافة أحد، خصوصًا النساء المرافقات للمرضى، اللائي يتلملمن أحيانًا من كلّ أركان المستشفى ويأتين ليحصلن على هواء مكيّف، وصحبة جيّدة، وربّما على عشاء أو قهوة أو نسكافيه أو حتّى قبلة سريعة مختطفة وحذرة.

قلت للرجل الذي لم يكن مألوفًا لديّ، ولا شككت في أنّني شاهدته من قبل، بل توقّعت أنّه ربّما يكون أخًا أو زوجًا لإحدى المريضات عندنا، ويستفسر عن مرضها:

– نعم... خير؟

نظر إليّ بتمعّن، وأحسست بأنّ نظراته قاستني طولًا وعرضًا، ولم تترك في تفاصيلي شبرًا، إلّا مشت فيه، وقال:

– لا أظنّ أنّ هناك خيرًا في هذا الزمان، اسألني أنا، فقد كنت في الجنوب، وحاربت ما ظننته شرًّا، واكتشفت أنّني الشرّ الذي يحارب الشرّ... لا يوجد خير أيّها الطبيب.

كان صوته قويًّا، ومليئًا بالتوتّر، وبدا لي صوت رجل يخوض حملة شرسة، ليترشّح لمنصب ما، لكنّ وجهه كان خاليًا من التعابير.

– إذًا، ما المطلوب منّي تحديدًا؟

– أشياء كثيرة... واجبات أو إن شئت... أعباء.

أحسست فعلًا بالغرابة، وبأنّ وقفتي قد تمتدّ عند الباب مع شخص يختزل الكلام بشدّة، ولا يبدو أنّه سيلقي ما عنده ويمضي. كان عليّ أن أختصر وجوده أو أحجّمه وأصل إلى غايتي:

– قل لو سمحت... أنا مشغول كما ترى.

– وأين الشغل في استراحة مكيّفة؟!

قال، وابتسم، أسنانه ليست بيضًا تمامًا لكنّها سليمة، لسانه أحمر مع بعض النتوءات العاديّة التي يمكن أن تطال أيّ لسان، وثمّة قلم رصاص أصفر باهت موضوع خلف أذنه اليسرى بطريقة النجّارين. مدّ يده اليمنى إلى جيبه، أخرج ورقة مطويّة، فردَها أمامي، وأخذ يقرأ منها بذلك الصوت القويّ المتوتّر الذي بدا كأنّه يلوك الكلام قبل أن يلقيه:

شريفة مختار جاه النبي.

ثلاثة وثلاثون عامًا وشهران.

سبب الدخول إلى المستشفى: ولادة طفلها الثالث.

الإجراء الذي تمّ: عمليّة قيصريّة.

تاريخ الوفاة 18 أغسطس.

سبب الوفاة: هبوط في القلب، وهو سبب غير مقنع.

الآن، أيّها الطبيب أخبرني ما هو سبب الوفاة الحقيقيّ للسيّدة شريفة مختار؟

بالطبع، ذكّرني بتلك الشابّة الجميلة التي خسرناها هنا منذ ثلاثة أشهر، ولا أحد عرف سبب الخسارة، ولو كنّا نعرف لسعينا إلى اللحاق بحياتها قبل أن تتسرّب. في ذلك الوقت، كان قد ضغط على شفته، وابتدأ يطالعني بنظرات أخرى، نظرات لم تكن تحمل شيئًا من الودّ، وأيضًا لم أستطع تصنيفها عدائيّة تمامًا.

وجدت نفسي حزينًا، لكنّ ذلك لم يمنعني من أن أغتاظ، فأنا لا أعرف الرجل ولا سبب قدومه فجأة بعد مضي زمن طويل على المأساة، ولا صلته بالفقيدة التي أعرف زوجها وإخوانها وأزعم أنّني أعرف كثيرين في قبيلتها.

قلت:

– ما شأنك أنت؟ وأصلًا من أنت؟ ولماذا أتيت بعد كلّ هذا الوقت لتسأل؟

– لا يهمّ...

ردّد في برود، وأضاف:

– صلتي بالمرأة لا تهمّ واسمي أيضًا لا يهمّ، اعتبرني مجهولًا، ويمكن أن تناديني: يا مجهول... يا مجهول، وسأجيب عن طيب خاطر... أحبّ أن أكون مجهولًا، أمّا لماذا لم أحضر والمأساة طازجة، فهذا يخصّني وحدي...

– نعم، اسمك غير مهمّ، لكنّ صلتك مهمّة، حتّى تحصل على معلومات.

– اسمع، أبحث عن سبب وفاة امرأة جاءت إلى هنا تمشي على قدميها، وخرجت محمولة على الأكتاف، وسأحصل عليه، لست غشيمًا لأقتنع بذلك السبب الأبله الذي دوّن في شهادة الوفاة: هبوط في القلب. هل كان القلب في الطابق الثاني أو الثالث، وهبط؟ أو لعلّه كان في أحد أبراج مانهاتن... ههههه... لا... لن تتخلّص منّي... أقسم إنّك ستراني كثيرًا بعد اليوم، ربّما أكثر من رؤيتك فرشاةَ أسنانك إن كنت تستخدم فرشاة أسنان، ههههه.

وقف قليلًا ينتظر ردّ فعلي، فلم أمنحه سوى ابتسامة أردت أن أجعلها غبيّة إلى أقصى حدّ، أدخل على إثرها ورقته إلى جيبه وانصرف. كان يمشي بثقة، سرواله الرماديّ قديم وباهت كأنّه ذكرى من الماضي تطلّ من إطار قديم، حذاؤه من تلك الأحذية الرخيصة التي تفصل محليًّا في أيّ سوق شعبيّة، وقد أطلّت الورقة التي سجّل فيها البيانات من جيبه.

لم أتأثّر كثيرًا بما قال، فتلك ردود فعل معتادة، نواجهها من حين لآخر، وتصل أحيانًا إلى حدّ التهديد بالقتل، أو الشروع فيه، أو حتّى إكماله إلى النهاية. أذكر أنّ أبًا لثلاثة عشر طفلًا، تعبت

أمّهم من الحمل المتعاقب سنويًّا، وأصابتها التجلّطات في الساق، والقلب مرّات عدّة، وقمنا بربط أنابيب المبيض عندها حفاظًا على ما تبقى من صحّتها، جاء مهتاجًا، يحمل سلاحًا ناريًّا، ويبحث عن الطبيب الذي أجرى عمليّة الربط، وحرمه الذرّيّة، ليقتصّ منه، قبل أن تعتقله شرطة الحراسة في المستشفى، وتتمّ تهدئته.

وكان مدير المستشفى في وقت من الأوقات رجلًا رائعًا وطبيبًا ذا كفاءة كبرى، لا يشاهَد إلّا مبتسمًا أو ضاحكًا، أو وهو يساعد أحدًا على إنجاز شيء ما، وبالرغم من ذلك، اقتحم مكتبه ذات يوم مواطن عاديّ لا يبدو مختلًّا، وقضى عليه بأكثر من ثلاثين طعنة سكّين، ولم يستطع أحد إنقاذه، ولم تعرف إلى الآن أسباب تلك الجريمة الكبرى.

حوالى منتصف الليل، وبعد أن قرأت صفحات كثيرة من «ليلة المليار»، وشاهدت وجه بيروت الآخر غير المليح، الذي يندسّ عادة في أيّام السلم، وخلف شوارع الضجيج وصوت فيروز الآسر، خرجت أتفقّد غرفة الولادة، وذلك العنبر البركانيّ القابل للانفجار في أيّ لحظة، وأعني عنبر النزيف، حيث ثمّة نساء مهدّدات بالإجهاض في أيّ لحظة. كانت غرفة سميّة – سوسو الطرب، تلك الغرفة الفاخرة التي استحى مؤسّسوها التجّار، من سحب إضافاتهم منها بعد أن خرجت، تدرّ عائدًا جيّدًا، وكانت تسكنها في هذه الفترة، طبيبة في مستشفى خاصّ في السعودية، جاءت في إجازة لتضع مولودها الأوّل. كانت غاية في الاحترام والتهذيب، ولم أتصوّر قطّ وأنا أطالع رقدتها المسالمة على السرير، وهي تداعب طفلها، أنّ ثمّة جريمة مخجلة تمّت هنا ذات يوم.

كان ثمّة رجال متجمّعون داخل القسم، ينتظرون قريبة لهم على وشك الولادة، ومعهم بعض النساء. وبدت في وسط الجمع امرأة مسنّة ترفع يديها إلى السماء وتدعو بصوت واهن. كان أيضًا ثمّة وجه موجود بين أولئك الساهرين، عرفته على الفور، أو ربّما خيّل إليّ أنّني عرفته، إنّه وجه مجهول، صاحب السروال الرماديّ، والورقة المطويّة، والسؤال السخيف الذي لن يعيد امرأة ماتت إلى الحياة:

ما هو سبب الوفاة؟

# 10

المرة الأولى التي انتبهت فيها بجدّيّة إلى أنّ الغريب الذي سمّى نفسه مجهول، موجود حولي بكثافة بالرغم من أنّه لم يطرح أيّ سؤال جديد بخصوص سبب وفاة شريفة مختار، كانت بعد يومين فقط من زيارته إيّاي في استراحة القسم، وكان ذلك في ميدان ترابي صغير في أحد الأحياء القريبة من وسط المدينة، اعتدت أن أذهب إليه مساء يوم الجمعة من كلّ أسبوع، لأمرّن جسدي قليلًا في لعب كرة القدم، بصحبة عدد من الزملاء والأصدقاء. كان ميدانًا مهملًا، يقع في وسط الحيّ، وبلا أيّ مؤهّلات تجعله صالحًا للتمارين، لكن على الأقلّ نستطيع أن نركض فيه قليلًا، ونمشي بحماسة، ونلمس الكرة، ونقذفها من دون أن يستهزئ بلعبنا العشوائيّ أحد.

كنّا نقسم الحاضرين في العادة إلى فريقين، يلعبان ضدّ بعضهما بعضًا، ننفق تلك الساعة الرياضيّة بسعادة غامرة ثمّ نذهب إلى مشاغلنا، على أمل اللقاء في أسبوع مقبل.

بدأنا اللعب كالعادة، لكني انتبهت فجأة، وأنا في شدّة حماستي، إلى وجه مألوف، ليس من الأصدقاء، يلعب صاحبه بطريقة غريبة في الفريق الخصم، ولم يكن موجودًا ساعة قسمنا الحاضرين إلى فريقين.

كانت صدمة لي. مجهول هنا أيضًا، وينحشر في نشاط خاصّ جدًّا من نشاطاتي، لا أعرف كيف تعرّف إليه أصلًا، وكيف انضمّ إلينا للعب ولا أظنّه صديقًا لأحد هنا. وبالرغم من أنّ بعض الغرباء، ومنهم لاعبون مخضرمون اعتزلوا اللعب منذ زمن، كانوا يأتون من حين لآخر، ويشاركوننا، إلّا أنّ وجود مجهول أربكني فعلًا. لم أكن أتوقّع أن أجده هنا على الإطلاق.

كان يرتدي زيًّا رياضيًّا قديمًا أزرق اللون، يبدو فضفاضًا على جسده، يعتمر قبّعة بيضاء عليها شعار شركة ياماها اليابانيّة المختصّة في صناعة المحرّكات، وينتعل حذاء أسود ضيّقًا من المطّاط، ويركض أمامي، وجانبي، وخلفي، وينتهز أيّ فرصة احتكاك بي، يخوضها بمتعة، وأخاله يبتسم. في الواقع لم يكن يبتسم، وإنما يقلّص تقاطيع وجهه، كلّما واجهته عيناي.

لعبت قليلًا بلا حماسة، وخرجت من الميدان قبل أن تكتمل ساعة التسلية. كنت متوتّرًا فعلًا، أفكّر في ذلك المتطفّل، وكيف أستطيع إلغاء تطفّله، إن توغّل أكثر. التفتّ فجأة خلفي لأجد خصمي قد خرج أيضًا، ووقف يراقب انصرافي من بعيد.

لم يقل أيّ شيء ولم يبد متحفّزًا لخنقي أو لإيذائي، لكنّ مجرّد وجوده في مكان آتي إليه أسبوعيًّا، وبهذه الطريقة، غير مستساغ أبدًا. لم أحبّ ذلك، ولن أحبّه، وغالبًا سأتوقف عن المجيء إن عثرت عليه مرّة أخرى هنا. قد أسأل أصدقائي عنه وإن كان هناك من يعرفه، وقد لا أسأل، وأسعى إلى حلّ تلك المعضلة وحدي. وقد فكّرت بالفعل في أن أعود إليه، والاشتباك معه في عراك مثلًا، لكنّ طبعي كان بعيدًا من العراك، وحتّى عراك اللسان. كنت وما زلت أحبّ أن أبقى مسالمًا، في مجتمعات ربّما لا تهب المسالمين حياة جيّدة.

فجأة انتبهت إلى أنّني أفكّر سلبيًّا بلا معنى، وأصنع لصاحب سؤال سبب الوفاة مستقبلًا كبيرًا في الشرّ بلا وجه حقّ.

لماذا لا يكون الأمر مصادفة؟ لعلّه يمارس الرياضة مثلي، ويشبه أولئك الغرباء الذين ينضمّون إلى اللعب معنا من حين لآخر، ولا نفكّر أصلًا في هويّاتهم، أو نطرح عليهم أي سؤال، لماذا لا يكون كذلك فعلًا؟

ركبت سيّارتي بتوتّر وانصرفت. ظللت طوال الطريق أرسم خططًا وأمحوها، وحين وصلت إلى البيت، قصدت مكتبتي فورًا، التقطت كتابًا تراثيًّا، ودفنت وقتي فيه حتّى منتصف الليل.

في اليوم التالي، أي السبت، كانت هناك عمليّات كثيرة غير ملحّة، أو غير طارئة، على تلك القائمة التي نعدّها خلال الأسبوع من حالات تأتينا باستمرار في أيّ وقت خلال السنة، ويستهلك تفيذها اليوم كلّه تقريبًا.

عمليّات صغيرة، مثل تنظيف الرحم بغرض تجديد الخلايا في حالات العقم المتأصّل، عمليّات مثل إزالة الأكياس الدهنيّة وغيرها من أيّ مكان قد يبدو مشوّهًا أو مربكًا للمرأة. وعمليّات أخرى كبرى مثل إزالة اللحميّات الرحميّة، وأكياس المبيض، وحتّى إزالة الرحم نفسه إن كانت الحالة تستدعي، بسبب ورم ليفيّ كبير، أو ورم سرطانيّ. وتلك كانت عمليّة شاقّة جدًّا من حيث تقنيّتها وزمن إجرائها، وحاجة المريضة فيها إلى دم إن نزفت، والتأثير السلبيّ الذي قد تتركه في المرأة حتّى لو كانت تجاوزت سنّ الخصوبة. إنّه الولع الأنثويّ بالاحتفاظ بأداة الخصوبة الكبرى، ونسيانها في موضعها الذي خلقت فيه، هكذا إلى الأبد.

في إحدى المرّات، زارتني في عيادتي في حيّ النور الشعبيّ فتاة في العشرينيّات من عمرها كان اسمها قمر، وكانت تزوّجت منذ عام من رجل من أقاربها يعمل محاسبًا في شركة كبرى للمحرّكات والحاصدات الزراعيّة في إحدى دول الخليج العربيّ، كما ذكرت، وظلّ معها ثلاثة

أشهر، قبل أن يغادر إلى جهة عمله. كان وجوده معها تلك الأشهر الثلاثة، مريحًا وحيويًّا، لكنّه لن يبقى، هكذا كانت تفكّر، والذي سيبقى هو طفل تحمله، وتنجبه في زيارته القادمة، ويكون رفيقها الذي يهشّ عنها الوحدة. لكنّ هذا لم يحدث، إذ مرّت أشهر وجود الزوج كلّها، ولم تحمل، ومضت أيّام بعد سفره ولم يظهر شيء، فجاءت أخيرًا تشكو من لا شيء، فقط هي لم تحمل أسوة بأخريات تزوّجن معها، أو بعدها بشهور، وتريد أن تعرف السبب.

كان السبب في الحقيقة مؤلمًا جدًّا مع الأسف، فقد اكتشفت في ذلك المساء، واكتشفت معي الفتاة وأمّها التي جاءت ترافقها، أنّها ولدت بلا رحم، في عيب خلقيّ نادر، لكنّه يحدث، وحدث معها.

كان صعبًا جدًّا أن ينتقل الخبر من الطبيب إلى الفتاة وأمّها، وانتقل في النهاية برغم صعوبته، لأنّه من الضروريّ أن ينتقل، وحدث ما كان انهيارًا كبيرًا لأحلام الأمومة التي لن تتحقّق أبدًا عند فتاة كاملة في كلّ شيء إلّا في خصوبتها، وربّما سيتحقّق كابوس غير متوقّع، وهو أن يتخلّى الزوج عنها حين يعلم باستحالة أن تأتيه بأطفال. وهذا ما حدث بالفعل، فقد التقيت الفتاة بعد عامين من ذلك وكانت مطلّقة حزينة، تقيم في بيت أهلها وتتلقّى دروسًا في السكرتارية في معهد بدائيّ قريب من شاطئ البحر.

تعرّفت إليّ بسهولة، بالرغم من أنّها لم تزرني سوى تلك المرّة الوحيدة القاسية. وأنا أيضًا تعرّفت إليها بالسهولة ذاتها، فثمّة كآبة أو فرحة طاغية، قد تتجلّى في ملامح أحدهم، ولا تضيع من الذاكرة أبدًا، وتلك كانت حالي مع تلك الفتاة. فوجهها وهي تتلقّى أمامي منذ عامين نبأ إلغائها من ذاكرة الخصوبة، كان باقيًا وسيبقى في ذهني سنوات.

تلك القائمة الطويلة من العمليّات شغلتني، ونسيت مع انشغالي بها وجه مجهول، وقدميه الخشنتين وهما تتسلّيان بلا رغبة في التسلية، في ملعب كرة القدم يوم أمسِ. لكن، وبمجرّد أن خرجت من تجمّع العمليّات بالقرب من مغيب الشمس، وشاهدته يقف في أحد الممرّات، ووجهه باتّجاه المجمّع، وتطلّ من جيب سرواله الرماديّ القديم ورقة، لا بدّ هي التي قرأ منها أوّل مرّة، حتّى تذكّرت أنّني عالق في ورطته، فليس هناك سبب ظاهر لوجوده في القسم. غالبًا جاء يتتبّعني.

مررت قربه سريعًا، وسمعته يردّد: «سبب الوفاة يا إنساني، ما هو سبب الوفاة عند امرأة، جاءت إليكم بقدميها وخرجت ميتة؟».

تجاوزته من دون أن أردّ، وانصرفت إلى استراحة الأطبّاء. جلست قليلًا أدخّن وأحتسي شيئًا من القهوة، وكان التلفزيون المعلّق في أحد الجوانب، يبثّ أغنية شجيّة لحمد الريح، لكنّي لم أجد نفسي متفاعلًا، وظللت أفكّر.

من المؤكّد أنّ شريفة مختار ماتت بهبوط حادّ في القلب، أو الدورة الدمويّة، أو ربّما جلطة مباغتة في الرئة، وهذا يحدث، ولا تمكن معرفة سبب الوفاة بدقّة، إن لم يتمّ تشريح الجثّة. لكنّ الناس في العادة لا يبحثون عن أسباب، هم يعرفون القضاء والقدر جيّدًا، ويؤمنون بأنّ ثمّة يومًا محدّدًا لانتهاء العمر، يومًا سينتهي فيه، لا محالة. بذلك المنطق، حمل أهل شريفة مأساتهم وذهبوا. لم يكونوا عدائيّين قط، لا عاتبوا طبيبًا، ولا أمسكوا بخناق ممرّضة، أو بصقوا على تراب القسم وهم يذهبون، وحين ذهبنا للعزاء في تلك الزاوية الصغيرة، في حيّهم، تقبّلوا عزاءنا برحابة صدر موجوع.

مَن هذا المجهول إذًا؟ ومن أين جاء لينتشل تلك القصّة من نسيان كان بدأ يردمها، ويجعلها محورًا عريضًا في يومي؟ ولماذا لم أسأله بجدّيّة حتّى الآن، أو على الأقلّ، أسأل أهل المتوفّاة عنه، إن كانوا على صلة به، أو على أسوإ الافتراضات، إن كان أحد منهم حرّضه ودفعه في اتجاهي؟ لماذا لا أبلّغ الجهات المسؤولة عن إزعاجه؟

وبرغم أنّ ملابسه رثّة إلى حدّ ما، لم يبدُ لي هذا الشابّ مجنونًا، والمجنون لا يتقصّى أصلًا الأماكن بتلك الدقّة، ولا يعرف أمزجة من يطاردهم، أيضًا كان ثابتًا وقويّ النظرات في تلك المرّات الثلاث التي التقيته فيها.

استبعدت عنصر الجنون في النهاية، واستبعدت احتمال أن أشكو شخصيًّا لأيّ جهة، على الأقلّ في الوقت الحالي، وقرّرت أن أبحث عن أثر عند أهل شريفة، إن تكرّر الأمر مرّة أخرى وتبعني إلى مكان ما، أو قذف لي من حلقه ذلك السؤال الذي مللت سماعه.

# 11

الخطوة المتطفّلة الجديدة التي كنت أتمنّى ألّا تحدث بعد خطوات ميدان الكرة الترابي وقسم النساء في يوم العمليّات، كانت في العيادة المسائيّة الخاصّة، وهي مبنى حجري بسيط، مكوّن من غرفتين متوسطتي المساحة وصالة صغيرة، استأجرته في وسط حيّ النور البعيد، قريبًا من سوقه، لأسباب كثيرة، منها أنّ مرضى تلك الأحياء في معظمهم فقراء أو يقتربون من الفقر في أفضل الأحوال، ويصعب عليهم أن يذهبوا إلى وسط المدينة للبحث عن حلول ممكنة لمشكلاتهم الصحّيّة الطارئة، أو المزمنة، ومنها أني اعتبرته موردًا قد يأتي بدخل حتى لو كان بسيطًا، كنوع من التعويض عن سنوات الدراسة الشاقّة الطويلة، وما أريق فيها من موارد العائلة.

كان التعليم في الوقت الذي طرقناه فيه صعبًا ومربكًا، والفرص فيه محدودة للغاية، تعتمد على اجتهاد التلميذ، مع الدعم الماديّ من الأسرة بالطبع، بعكس هذا الزمان الذي كثرت فيه الخيارات إلى درجة أنّ اختصاصات كثيرة ما كانت تذكر أو تحترم في الماضي أصبحت علومًا الآن، لها كلّيّات ومدرّسون وتلاميذ ينتظمون في الدروس. كان العمّ سعيد نوح، الطبّاخ الذي ينتمي إلى قبيلة الفلاتة، وتعرّفت إليه عند الحدود السودانيّة-الإريتريّة أيّام عملي مفتّشًا طبّيًّا هناك، جبّارًا في ابتكار أصناف من الطعام غير معروفة ولا مدوّنة في كتاب، وهو أصلًا لا يقرأ ولا يكتب. المسكين لم يكن يدري أن كلّيّات للطهو ستنشأ ذات يوم، وسيخرج منها موظّفون يؤدّون ما كان يؤدّيه بالضبط، بلا دروس ولا محاضرات.

وقد شهدت رقص مليحة، وهي فتاة في السابعة عشرة، من قبيلة محلّيّة، أجزم بأنّ رقصها علميّ، يهتزّ فيه الجسد بتناغم، ويشبه الرقص الذي يمكن أن يدرّس الآن في المعاهد.

كنت في ذلك المساء الذي صادف نهاية الشهر بلا زبائن كثيرين، وقد فرغت لتوّي من معاينة الكابتن صابر حسن، أو الكابتن جراهام كما يلقّب في الأوساط الرياضيّة لسبب لم أكن أعرفه، وهو رافع أثقال سابق في الثانية والستّين، كان ذا شهرة كبيرة في ما مضى، ويفتخر كثيرًا بأنّه أهمّ رياضيّ في أفريقيا، وأنّه حمل أثقالًا، حتّى الرافعات الآليّة المغروسة في الميناء تعجز عن حملها،

وكان شارك بالفعل في بطولات أفريقيّة محدودة، في ستينيّات القرن الماضي، وحصد ميداليّتين من البرونز، كانتا معلّقتين في غرفة يستقبل فيها الضيوف في بيته، واكتسب عادة أن يعلّقهما على صدره، ينام ويقوم ويطوف بهما الأماكن كلّها، مجرّد أن عرف أنّه في الغالب قد هرم، وأنّه لن يستطيع أن يحمل حتّى طفلًا رضيعًا، أو شاة عجفاء.

كانت مشاكله الصحّيّة قليلة ومعروفة، مثل آلام الظهر والركبتين، والصداع أحيانًا، واضطراب التبول بسبب مشاكل غدّة البروستات، لكنّ مشكلته في ذلك اليوم، كما قال، كانت سعالًا حادًّا، وجافًّا، يتطاير مع الكلام، ويمنعه من التفاعل مع أحبابه الرياضيّين، ومع معجبات كثيرات، يبحثن عنه ويستمتعن بأحاديثه الشيّقة، ويلتقطن معه الصور الفوتوغرافيّة، وربّما عبثن معه قليلًا وطلبن منه الزواج، هو الذي لم يتزوّج في حياته قطّ.

كان يتحدّث معي ويسعل بجفاف حقيقيّ، يتحدّث عن آمنة وسكينة وملكة الدار، وأخريات، وترتجّ ميداليتا البرونز على صدره.

لم يبدُ لي فتى أحلام لفتاة غضّة ولا حتّى لامرأة عجوز، ولا بدا هدفًا محتملًا لمعجبات من أيّ نوع. كانت جبهته مجعّدة، تقاطيعه غير ملهمة، وشعره خفيفًا جدًّا، ولا يكاد يذكر حين يذكر الشعر.

فحصت صدره من الأمام والخلف بعناية، وأرسلته لعمل أشعة في المختبر الوحيد المتطوّر الذي يوجد في وسط المدينة، وكتبت له علاجًا مؤقّتًا للسعال، كما يحدث دائمًا في الحالات التي لا يكتمل تشخيصها سريريًّا تمامًا.

لم أكن أشكّ في شيء معيّن، فقط أردت التأكد من أنّ لا شيء خطيرًا لديه.

كانت أخته التي تصغره بأعوام عدّة قد أتت معه في تلك الزيارة، وأزعجها بشدّة أن يُرسل بطل قوميّ مثله، قويّ وصلد، وحاصل على ميداليّات دوليّة، لعمل أشعة للصدر، وقد كان هذا الطلب بالذات، في عرف الناس، تخمينًا من الطبيب باحتمال إصابة المريض بالسلّ. تحدثّت إليها في تلك اللحظة، أخبرتها بأنّ أشعّة الصدر لا تعني الشكّ في وجود مرض السلّ بالضرورة، ولكن في احتمال وجود أمراض أخرى يسهل علاجها، مثل الالتهاب الرئويّ البسيط.

لم تبدُ لي مقتنعة، وبدت متكبّرة، وتنظر إلى البطل القديم بإعجاب زائد، لن يحيي تلك القوّة القديمة التي جاءت ذات يوم بميداليّات البرونز. كان الكابتن جراهام في الواقع عاطلًا الآن، وكثيرًا جدًّا ما أسمع في حيّ النور عن محاولاته الخاسرة للحصول على قرض من هنا أو هناك، وأدائه البائس في وظائف كثيرة، في ورش للنجارة أو الحدادة، استوعبه أصحابها ولم يمكث فيها حتّى يومين متّصلين. حتّى الكشك الصغير الذي منحته البلدية إيّاه في موقف باصات الحيّ، وكان من المفترض أن يستثمره في عمل تجاريّ بسيط، باعه لامرأة.

طالعتني الأخت المتكبّرة بكثير من عدم الرضا، وقالت وكان صوتها حادًّا وغير ودّيّ أبدًا: «سنأخذه إلى أخصائي أمراض الصدر في وسط المدينة».

كان شيئًا مألوفًا لدينا نحن صغار الأطباء المهاجرين بأحلامنا إلى الأحياء الطرفيّة الفقيرة التي تحتاج إلى خدمات طبّيّة رخيصة، أن نستفزّ بعبارة نأخذه إلى جرّاح، إلى أخصّائي الجلد، إلى مستشار في الأمراض الباطنيّة، ولا شيء من ذلك يحدث في الغالب، سيظلّ المريض الذي يأتينا بجنيهاته الفقيرة، مريضنا نحن، ولن يذهب إلى أيّ مكان آخر، وأقصى شيء سيفعله هو أن يدخل المستشفى إذا ما استدعت حالته ذلك، وهذا أيضًا يتمّ عن طريقنا.

قلت للأخت المتكبّرة: «لا مانع، خذيه إلى أخصائي الصدر».

قلت ونظرت إلى جراهام الذي لم يبدُ مستاء من مجرى الحوار، ولا التفت حتّى إلى أخته ليلومها على سوء السلوك. مدّ يده إلى سجائري التي أضعها على الطاولة ولا أستخدمها إلّا حين أفرغ من معاينة المرضى كلّهم، التقط سيجارة، أشعلها بولّاعتي، ووضع الولاعة في جيبه، لا أدري عن عمد أم مجرّد سهو، ثم نهض واقفًا يسعل بشدّة، مدّ يده مصافحًا وذهب.

كنت متأكّدًا من أنّه لن يذهب حتّى لعمل الأشعّة، وسيبقى يسعل هكذا بجفاف، أو ربّما يتحسّن بمضادّات السعال التي كتبتها له، وثمّة احتمال آخر أكثر ملاءمة لطبيعة الحيّ وانغراسه في الأبجديّة الشعبيّة وهو أن تأخذه الأخت فورًا إلى معالج بالأعشاب ليصرف له وصفات مثل اللبان الذكر، وبخار الخروع، وعشبة المنده ذات الرائحة المزعجة وأشياء أخرى، يتاجر بها العشّابون وهم يعرفون تمامًا أنّها مجرّد أخشاب.

لم يكن ثمّة أحد في الصالة كما عرفت من كشف المرضى الذي يضعه الممرّض عادة قبل بداية الفحص. في اللحظة التي أشعلت فيها سجارتي وأخذت أفكّر في مجهول الذي ظهر مرّات عدّة وأقلقني، دخل الممرّض ليخبرني بوجود صديق لي في الخارج يودّ أن يراني.

لم أسأل عن اسمه أو أوصافه، وقلت أدخله، ودخل على الفور، لأجده «مجهول» نفسه الذي لم تطر أفكاري عنه من الذهن بعد.

كانت مفاجأة مذهلة، ليس بسبب حجمها، ولكن بسبب تطابق الفكرة مع الواقع، وهذا يحدث أحيانًا ولا أجد له أيّ تفسير. مثل أن تفكّر في قرصة البعوض في بيئة نظيفة، وتقرصك بعوضة لا تدري من أين جاءت، أن تفكّر في أكلة معيّنة تحبّها أو تكرهها، وتذهب إلى البيت لتجدها طبقًا رئيسيًّا على الغداء. كان بسرواله الرماديّ الرثّ نفسه، بالورقة التي تطلّ من الجيب، بالجمود والاستفزاز، ورائحة العرق المتأصّل في جلده، وبلسانه الجافّ الذي يلوك الكلام قبل أن يلقيه:

– هل توصّلت إلى سبب وفاة شريفة مختار أيّها الطبيب؟ لا أريد سوى سبب الوفاة بكلّ أمانة... لا أكثر.

– هبوط في القلب.

قلت بإصرار، وأنا أحس بغباء غريب، وانهزام أيضًا.

– لا... قل سببًا آخر أيّها الطبيب حتّى أصدّقك...

– لا يوجد سبب آخر.

بانهزام أكثر، واستغراب منّي، لأنّني أتعامل مباشرة مع صعلوك لا أعرف هويّته.

– بل يوجد. فكّر في الأمر.

– لن أفكّر.

– فكّر.

قال واستدار، فتح الباب، وانصرف بهدوء. وبقيت أحدّق في الفراغ الذي أحدثه انفصاله عن واقعي، مثلما حدّقت في الثغرة التي ملأها بظهوره منذ قليل.

كان الولد يمسك بلؤم، بشيء لا يخصّه، أو ربّما يخصّه، لا أدري حتّى الآن. هو لا يفعل شيئًا سوى إرباكي ويختفي. لو أبلغت عنه لما حاسبه أيّ قانون. لا يوجد قانون يمنع الأسئلة، ولا قانون يمنع إرباك أحد أو مدّه بالقشعريرة، إضافة إلى أنّ الإبلاغ عن إزعاجه، ومساءلته على ذلك، قد يزيدانه غليانًا، ليزعجني أكثر...

ظللت أحدّق في الفراغ طويلًا بعينين دامعتين، وغالبًا حمراوين، مستعيدًا يوم موت شريفة الذي لم أشهده شخصيًّا ولا حضره أحد من الزملاء، ذلك ببساطة أنّه لم يكن موتًا صاخبًا، يصرخ مناديًا المختصّين لينازلوه. لم ينازلنا حقيقة، ولم يستلّ أيّ سيف أو خنجر وينتظرنا في جسد المرأة البيضاء الجميلة، كي نحاول القضاء عليه. كان موتًا هادئًا، رزينًا، مهذّبًا، جاء يمشي على رؤوس أصابعه، أخذ ما أراد أن يأخذه ومضى في حال سبيله.

ولو تمعّنا في سلوك من سمّى نفسه مجهول وغالبًا سأتوصل إلى اسمه وهويّته بأيّ طريقة، لاستنتجنا أنّه ذو صلة بالفقيدة. لكنّه ليس الزوج لأنّني أعرف الزوج جيّدًا بالطبع، وليس أيّ أحد من الإخوان لأنّني أعرفهم وقمت بتقديم العزاء لهم كلّهم، ولن يكون عمًّا ولا خالًا لأنّه لا يبدو كذلك، وحتّى لو بدا، فالعمّ أو الخال لن يهتمّا بمطاردة طبيب بعد ثلاثة أشهر من حادث فجئيّ لا دخل له فيه.

خرجت من غرفتي لأتنفّس هواء جديدًا، في حيّ جعل التأخّر العمرانيّ، وعدم وجود سيّارات وشاحنات وأبخرة كئيبة، هواءه أفضل وأنقى.

كان الممرّض في الصالة الخارجيّة مشغولًا بعدّ النقود التي استلمها من المرضى. بدت لي قديمة، وشممت رائحة فقر وعرق تنبعث منها. وقفت في مدخل العيادة قليلًا، كان الشارع هادئًا إلى حدّ ما، ثمّة رجال يجلسون على دكّة منخفضة أمام البيت المقابل، يلعبون الورق على ضوء فانوس

صغير، مستعينين أيضًا بما تضخّه العيادة من ضوء قويّ لتمتّعها بمولد كهربائيّ. ثمّة حمير وكلاب هزيلة تتمشّى في الليل، وتلعق الظلام. رأيت أيضًا جامع تبرّعات معمّمًا أعرفه يطوف في المدينة منذ سنوات، حاملًا دفترًا صغيرًا، ويتحدّث عن التبرّع لبناء مدرسة في حيّ النور لم نر منها شيئًا حتّى الآن.

# 12

في ذلك الوقت، أي بداية التسعينيّات من القرن الماضي، لم تكن ثمّة هواتف متوفّرة بسهولة في المدينة. كانت الشبكة القديمة قد أنشئت بدخول الهواتف لأوّل مرّة مع بداية القرن العشرين، ولم تتوسّع كثيرًا بعد ذلك، قد تعبت وتمزّقت، وما عادت تحتمل التطوّر، ولا حتّى العمل الذي كانت تؤدّيه قديمًا.

كانت معظم البيوت والمرافق العامّة، الحيويّة، وغير الحيويّة، بلا هواتف، وحتّى تلك التي تحوي هواتف، تجدها خامدة، بلا أيّ أمل في استيقاظ وشيك. حتّى المستشفيات، كانت هواتفها خامدة، وإدارة الهاتف والبريد، أي الجهة التي تشغّل الهواتف، كانت بلا هواتف تعمل.

كان أيّ طلب عاجل لطبيب أو فنّيّ مناوب من بيته يتمّ بإرسال سيّارة إسعاف إليه، وجلبه. وحقيقة كانت توجد سيّارتان فقط للإسعاف، غالبًا خارج الخدمة الملحّة، وتعملان في جلب الموظّفين المناوبين إلى العمل، وتوصيل الممرّضات إلى بيوتهنّ وأشغال أخرى لا علاقة لها بإنقاذ الحياة على الإطلاق، وحدث أن زركشت إحداهما بالورد الأحمر والأصفر والبنفسجيّ ذات يوم واستخدمت في زفّة عروس كانت تعمل ممرّضة في قسم الأطفال ولا تملك إمكانية استئجار سيّارة، كما أخبرني أحد الزملاء بأنّه شاهد مرّة إحداهما تنقل اللحوم إلى ملحمة في وسط المدينة. ومرّة، كنت راكبًا مع السائق وفي طريقنا إلى المستشفى، حيث تنتظرني حالة ملحّة، فانتبهت إلى وقوفه المتكرّر في الطرق لالتقاط الناس. كان يوصلهم بأجر.

نتيجة لذلك كلّه، فقدت سيّارة الإسعاف تلك الهيبة المميّزة، الهيبة المدرّة للرعب والتوجّس عند مشاهدتها تتمايل في شوارع حيّ ما، فيسرع الناس خلف تمايلها، ليتعرّفوا إلى المريض الذي ستقوم بنقله، وما يحمله من مرض يستدعي نقله إلى المستشفى هكذا. لقد تحوّلت في الواقع إلى مجرّد سيّارة عاديّة، يمكن تشحيمها وتزييتها وتغيير إطاراتها وفتح ماكينتها وغلقها في أيّ ركن، وعند أيّ ميكانيكيّ، ويمكن أن يقودها أيّ سائق من سائقي عربات النقل والتاكسي، وحتّى الدرّاجات الناريّة والهوائيّة. وبالفعل، كان آخر سائق تركته يعمل في خدمة الإسعاف، واسمه

موسى، لا يعرف حتّى كتابة اسمه، وبالتالي لن يعرف أيّ شيء عن فتح مجرى الهواء عند مريض يختنق، أو إدخال أنبوب أوكسجين، أو شفط إفرازات من الحلق ليساعد أحدًا على البقاء حيًّا.

كنت أفكّر في العثور على أحد له علاقة بمجهول الغامض، وتذكّرت مسألة الهواتف تلك التي كانت ستساعد بلا شكّ في العثور على الشخص المطلوب لو أنّ نظامها يعمل كما يجب. بغياب هذا الخيار، لا بدّ من الذهاب شخصيًّا، والنبش في الأحياء المحتملة، للعثور على شيء. لقد تكّرر ظهور الشخص بالفعل، والآن لا بدّ من خطوة.

كان عزاء المتوفاة قد أقيم في ما يسمى الزاوية، وهي عبارة عن حوش متوسّط المساحة، مسوّر بالحجر، وفيه غرفة واسعة كبيرة، وقد صمّم هكذا خصوصًا للمناسبات التي قد تحدث في الحيّ، مثل مناسبات الزواج، والوفاة بطبيعة الحال، كما يمكن أن يستغلّ حتّى لإقامة حفل دينيّ أو صوفيّ، حين يعود أحدهم من الحجّ، ويحتفل، أو حفل بلا معنى تحشد له التوافه، بمناسبة ختان أطفال صغار، أو تسمية مولود قدم حديثًا.

كانت الزاوية تقع في حيّ اسمه كوريا، كان من أحياء المدينة القديمة. لا أعرف سبب تسميته بذلك الاسم الغريب عنه تمامًا، ولكن الأرجح أنه سمّي على اسم شخص أو عائلة، وليس على اسم كوريا، تلك البلاد البعيدة التي لم يكن أحد يعرف عنها شيئًا حتى عهد قريب. ولأنّ زملاء دراسة عديدين كانوا يسكنون هناك، فقد كنت أعرف الحيّ إلى حدّ ما، أمضيت الليل فيه مرّات كثيرة، وها أنا أشقّه الآن بسيّارتي الصغيرة، وأرى تلك التغيّرات التي طالت مساكنه بجلاء. كانت معظم بيوت الخشب قد أزيلت وحلّت محلّها بيوت من الإسمنت الخالص، أو الطوب الأحمر، ترتفع منها هوائيّات الإرسال التلفزيونيّ. أيضًا، ثمّة ترع كثيرة قديمة متأصّلة هناك قد ردمت، وأخذت مكانها ترع أخرى جديدة تحمل شعلتها وتلوّثها أمراض أخرى، وانتبهت إلى كثرة الدكاكين، بحيث لا يخلو شارع من خمسة أو ستّة منها.

درت في المكان أتلمّس طريقي، وأبحث في ذاكرتي عن تلك الزاوية التي أقيم فيها العزاء، وأتيت إليها برفقة زميل كان يعرف الحيّ. ولم يكن الأمر سهلًا، فالشوارع غير مخطّطة جيّدًا، ولا تحمل أسماء معيّنة أو أرقامًا، يمكن السؤال عبرها. كان هذا الشارع يشبه ذاك، وذاك يشبه كلّ شوارع الحيّ، بالرغم من وجود علامات في بعضها، مثل صهريج كبير للماء، أو مدرسة ابتدائيّة لها اسم مكتوب بوقار على لافتة، أو ورشة للنجارة أو الحدادة.

أخيرًا، قرّرت السؤال مباشرة. وكانت المعضلة هي السؤال عن مكان لا أعرف اسمه بالضبط فتلك الزوايا تسمّى عادةً على أسماء قبائل أو طرق صوفيّة ولا أعرف حقيقة اسم القبيلة أو الطريقة الصوفيّة التي تملكها وتهبها للمناسبات.

كان ثمّة رجل مسنّ، يجلس على مقعد بلاستيكي أمام أحد البيوت في شارع ضيّق، وطويل إلى حدّ ما، ومزدحم بالبيوت على الجانبين، يمارس عادة متأصّلة في البلاد، وضاربة بجذورها في التاريخ الاجتماعيّ، هي الجلوس في الطرقات العامّة، ومراقبة النشاط الفوّار، أو الخمول الذي يتبعه مراقبة تحرّك الجيران والداخلين إلى بيوت الجيران، والخارجين منها، مراقبة الغادين والرائحين، والنظر بعمق إلى مشي النساء ومقارنة وجه هذه بوجه تلك، وجسد تلك بوجه هذه. في كلّ المدن والأحياء تقريبًا، يوجد أشخاص مهمّتهم الكبرى في الدنيا هي الجلوس في الشارع، وكنت أعرف واحدًا منهم، اسمه صالح، ولقبه صالح شوارع، كان في السابعة والستّين، تقاعد عن وظيفته التي كانت سائق قطار للبضائع بين الميناء والعاصمة، وجاء ليمضي ما تبقّى من عمره في الشارع. كان راسخًا هناك طوال الليل والنهار تقريبًا، في ما عدا أوقات قليلة في اليوم ينفقها في قضاء حاجاته الخاصّة، مثل دخول الحمّام، والتسوّق من محلّات قريبة في حيّه، أو الذهاب إلى عرس أو عزاء هنا أو هناك. وقد ساعد عدم زواجه في إشعال تلك العادة الغريبة، إلى درجة أنّه أصبح مرجعًا لحوادث الطريق من فرح وغمّ ومشاحنات، وتحول إلى شيئٍ أشبه بالخاطبة، يستشيره الشباب في مواصفات عرائس من المؤكّد يعرفهنّ جيّدًا بحكم جلوسه المزمن في الطريق، وأيضًا يستشيره آباء لبنات تمت خطبتهن لشباب يسكنون الحيّ نفسه، ويودّ الآباء أن يعرفوا شيئًا عنهم.

زرت صالح شوارع في آخر حياته، وقبل أن يموت بمضاعفات مرض السكّر. جلست معه ساعات على سرير الحديد القويّ الذي يجلس عليه نهارًا، ويتمدّد فيه ليلًا لينام ساعات قليلة يصحو بعدها ليعاود التحكّم في الطريق. استمعت إلى قصص قويّة وغريبة عن الشبع والجوع، وخلفيّات الزواج والطلاق، والأمراض الطارئة والمزمنة، ولصوص البيوت وقطّاع الطرق، وفتيات الليل المتاحات في المنطقة بأسمائهنّ وتواريخ ميلادهنّ، وإن كنّ أصبن بالزهريّ والسيلان أم ظللن نظيفات، وحدّثني كثيرًا عن واحدة اسمها تومة وينادونها تمتم، اختارها نموذجا للمرأة المثاليّة كما ينبغي أن تكون، وكان تتبّعها عشر سنوات كاملة، ولم يسمع صوتها، أو يشاهدها ترفع عينيها عن الأرض أو تحادث أحدًا قط.

اقتربت من الرجل المسنّ بعد تردّد، وبعد أن قارنته بأشخاص آخرين كانوا يجلسون في شوارع مختلفة، لم أنجذب إليهم حقيقة. بدا لي وهو في السبعين شديد الشبه بمسنّ آخر كان يسكنفي حيّنا أيام الطفولة، ونسمّيه الجدّ من دون أن نسعى إلى معرفة اسمه، أو نفكّر أنّ له اسمًا آخر. كانت في عيني هذا المسنّ نظرات لم تبد لي مسنّة ولا تشبه انحدار الذاكرة الذي قد يتبلور في هذه السنّ. توقّفت بسيارتي قريبًا منه ونزلت. صحت:

– السلام عليكم.

ردّ على الفور:

– وعليكم بما قلتم.

وكانت جملة قديمة، تدّعي المَلاحة والظُرف وليس فيها ملاحة ولا ظرف.

– كيف حالك يا عمّ؟

– كما ترى، من أهل الله وعلى باب الله، في سبيل الله.

كانت ملابسه عاديّة جدًّا، ثوبًا من القطن الخفيف الأبيض الذي يسمّى «العراقيّ»، طاقيّة حمراء مستهلكة، نعلين من الجلد المعتاد، يجلس على مقعد بلاستيكي بظهر مكسور، ويبدو البيت الذي يجلس أمامه جيّدًا ومرتّبًا.

لم أرتح لإجاباته المراوغة تلك، وفكّرت في أن أتركه وأذهب، لكنّي تعرّفت إليه فجأة. كان عثمان عيسى، أو عثمان تسلية كما سمّى نفسه، الممثّل الفكاهيّ القديم الذي عاصرنا انتشاره في فترة ما من حقبة السبعينيّات، حين كنّا طلّابًا في المدارس، وكان يشارك في مساءات كثيرة تقام فيها ما كان يسمّى الجمعيّات الأدبيّة. كان يصعد إلى المسرح الخشبي المؤقّت الذي يقام في منتصف حوش المدرسة عادة، يحكي، ويصرخ، ويغيّر ملامحه، ويخترع مسرحيّة صغيرة في كلّ مرّة، قد يشرك فيها بعض التلاميذ، وكنت أعطيته مرّة نصًّا بدائيًّا كتبته برداءة وبلا أيّ خبرة، وسمّيته: مكتب تأجير الواسطات، فأخذه منّي، وأعاد صياغته من جديد ليصبح نصًّا ذا قيمة، جاء يؤدّيه على المسرح، مع عدد من الممثّلين الآخرين. أذكر أنّه ذكرني بالاسم في بداية الفقرة، ناسبًا النصّ إليّ، ما ملأني بكثير من الفرح والزهو.

منذ سنوات طويلة، لم أر عثمان تسلية الذي كان يعمل، بجانب عشقه للفكاهة، موظّفًا في الميناء، ولا سمعت عنه شيئًا. مثله مثل شخصيّات كثيرة نبتت في المدينة وأزهرت ثمّ سقط منها الصيت وتلاشى البريق، ولم تعد تخطر على بال أحد إلّا نادرًا. ومثلما كان عثمان تسلية ممثّلًا ذا صيت، وتحوّل إلى مسنّ في الشارع، كان محمود كمنجة عازفًا موسيقيًّا نجمًا وانطفأ، وزيادة كان حارس مرمى كبيرًا وقويًّا، وما عاد موجودًا الآن، وكذا كثيرون.

سألته: «هل تذكر مسرحيّة مكتب تأجير الواسطات؟».

نظر إليّ طويلًا، أطول من المعتاد، إلى وجهي، إلى قامتي، أخرج من جيبه نظّارة طبّيّة بإطار من الأسلاك الرفيعة، وضعها على وجهه لحظات، تأمّلني بها أيضًا، ثمّ نزعها عن وجهه، أعادها إلى جيبه، وقال: «لا».

بالتأكيد لم ألمْه على ذلك، فقد مضت سنوات طويلة، تلاشت خلالها جماليّات كثيرة، وجاءت سنوات من القحط، سطت على كلّ ذاكرة وطردت منها الشيّق والجميل والأنيق. جاءت أيّام حظر للموهبة، وازدراء للتسلية، ونكران أيّ خير حدث، أو أحدثه أحد. لا بدّ أنّ عثمان فقد معطيات جيله

كلّها، كما فقد الكثيرون من أبناء الجيل في الغالب أنفسهم، وها هو الآن في الطريق ينتظر وقوع حدث ما، ذلك الحدث الذي قد يكون الأكبر في حياته، حين تتلاشى الحياة.

سمعته يقول: «لا يوجد في هذا الشارع، ولا أظنّه يوجد في حيّ كوريا كلّه. لم أسمع بمكتب يؤجّر الواسطات أبدًا».

ضحك. أسنانه بشعة وملوّثة بما خلته خليطًا من التبغ والتنباك وأطعمة ذات سمعة سيّئة صحيًّا، انحسر قميصه القطنيّ القصير قليلًا وانتبهت إلى أنّ ساقه اليمنى مبتورة عند أسفل الفخذ بقليل. ليس نتيجة حادث كما يبدو. هذه لعنة مرض السكّر، أن تأكل وتشرب على هواك، وتجلس بلا نشاط، وهو داخلك يتسلّى بإتلاف الأعضاء عضوًا وراء آخر.

قلت: «هذا اسم مسرحيّة قديمة سيّدي، كنت كتبتها وأنا طالب صغير وأنت عدّلتها، وقمت بتمثيلها على مسرح مدرستنا، لا بدّ أنّك نسيت الأمر».

لم يبدُ متحمّسًا لتلك الذكرى التي فاجأته أو خنقته بها، لم يبتسم، ولم يضحك، ولم يصرخ: نعم... نعم، كما يمكن أن أتوقّع. ظلّ كما هو جامدًا في مقعده، فقط مد يده اليمنى إلى قميصه، وغطّى به نكبة السكّر، وباليد اليسرى أخرج كيسًا صغيرًا للتنباك من جيبه، لكنّه لم يستخدم منه سفّة.

كان ثمّة صمت بيننا امتدّ لحظات، لم يقطعه فقطعته أنا قائلًا ببطء:

– أبحث عن زاوية أقيم فيها عزاء لامرأة ماتت منذ ثلاثة أشهر في عنبر الولادة، ولا أعرف اسم الزاوية.

انشرح بغتة، اندفع:

– نعم... نعم... إنّها زاوية قبيلة المحس، والمتوفّاة هي شريفة مختار جاه النبيّ، وسبب الوفاة، هبوط حادّ في القلب والدورة الدمويّة كما شخّص الطبيب. زوجها حسن يعمل في السكّة الحديد، وغالبًا سيتزوّج الشهر المقبل من أختها الصغرى آمنة، التي تعمل مدرّسة في روضة أطفال، لتربّي أبناءه الثلاثة الذين تركتهم المرحومة.

أدهشني حقيقة، أذهلني.

– تعرفهم جيّدًا إذًا؟

– طبعًا، منذ أن كانت شريفة طفلة، تلعب الحجلة أمام بيتي هذا، قبل أن تصاب بشلل الأطفال.

– يسكنون هنا إذًا.

– أهل المتوفّاة فقط يسكنون في الشارع الموازي، لكنّ زوجها يسكن بعيدًا، لماذا تبحث عن الزاوية؟

شجّعني سؤاله كثيرًا، في الواقع كان أشبه بنداء كبير أنهى توجّسي، ومن دون أيّ مقدّمات، أو تحفّظات، حكيت له قصّة الولد المطارد «مجهول» الذي ظهر في حياتي فجأة، وسؤاله الملحّ عن سبب الوفاة الذي يتبجّح به، واستيائي من إزعاجه، وأنّني أتيت لحلّ المسألة ودّيًّا إن كان لذلك الشخص علاقة بأهل المتوفّاة، وكان في إمكاني أن أحلّها قانونيًّا.

انتهيت من السرد ونفسي متسارع، وكنت وصفت شكل الولد، وغطرسة صوته، وحتّى الغبار الأصفر الذي كان عالقًا في حذائه. وبدا لي أنّ الرجل لم يظهر اهتمامًا، كان يعبث بنظارته الصغيرة، يخرجها من جيبه ويدخلها مرّة أخرى. أخرج من كيس تنباكه سفّة، عالجها بأصابعه ووضعها تحت شفته السفلى، لكن حين سكتُّ في النهاية، التقط الحديث بسرعة، وقال في صوت واضح:

– هل سمّى نفسه مجهولًا؟ غريب أنّه تذكّر، فقد كنت أناديه بهذا اللقب وهو طفل بسبب عدم اختلاطه بالأطفال، وعدم ظهوره أمام زوّارنا...

سألت مندهشًا:

– تعرفه إذًا؟

– نعم، أعرفه جيّدًا... إنّه ولدي.

– ولدك؟

– نعم، ولدي عبد المطّلب عثمان تسلية...

أخذت أنظر إليه مندهشًا، أقارن ملامحه القديمة بملامح ذلك الشابّ الذي أكاد أكون ارتويت من ملامحه، ويمكنني استعادتها في أيّ وقت. بدا لي في لحظة ما نسخة من المتطفّل، وفي لحظة أخرى، مختلفًا تمامًا عنه. أيضًا، كان لتلك المصادفة الغريبة وقعها في إشعال الدهشة في نفسي. أن آتي لأبحث عن خيط في موضوع يؤرقني، وأصل ليس إلى خيط يؤدّي إلى طريق قد يؤدّي إلى نهايةٍ ما، بل إلى النهاية مباشرة.

لم أنتظر دعوته إيّاي إلى الجلوس، جلست على المقعد الآخر بجانبه، وأنا أردّد بصوت مسموع: يا للغرابة... يا للغرابة.

# 13

القصّة ليست طويلة ولا عظيمة، ولا فيها أيّ شيء خارق للعادة.

لقد كان عبد المطّلب عثمان الذي أفضّل أن أسمّيه مجهولًا وأنا أتحدّث عنه أو إليه، بناء على طلبه، طالبًا في كلّيّة الطبّ في يوم ما. دخلها بعد ثلاث محاولات، استهلك فيها كثيرًا من موارد أهله، لكنّه لم يتقدّم أكثر من فصلين دراسيّين، تعلّم فيهما شيئًا من مبادئ التشريح ووظائف الأعضاء، وقليلًا من علم الأنسجة والخلايا ودورة حياة عدد من الحشرات المعروفة والقواقع، ثمّ ترك الدراسة، أو الدراسة تركته على حد قول والده.

هو الآن مشرّد في المدن والشوارع منذ أكثر من ثماني سنوات، قد يعمل قليلًا في أيّ وظيفة يجدها حتّى لو كانت وظيفة سقّا أو غاسل سيّارات، أو صيّاد سمك، أو مساعد نجّار أو حدّاد، أو حتّى حفّار قبور، وفي الغالب لا يعمل. وحين يأتي إلى الساحل لا يذهب لزيارة أهله مطلقًا، يسمعون بوجوده في المدينة من آخرين يلتقونه مصادفة في الطرق، ويتمنّون رؤيته، لكنّه لا يحقّق لهم حتّى هذه الأمنية البسيطة.

لقد ذكر الممثّل الفكاهي القديم عثمان تسلية أنّ ابنه عبد المطّلب لم يعد يحبّ الأطباء منذ تعرّف إلى خامات مهنتهم، وغالبًا يتسلّى بمضايقتهم، ولكنه لا يؤذي أحدًا على الإطلاق وحتّى الشكاوى في حقّهم التي قد يقدّمها لأيّ جهة، هي شكاوى واهية لا تستند إلى شيء. لا علاقة له بشريفة مختار أو بأسرتها، ولا كان من الذين اهتمّوا بتلك الأسرة يومًا، ولا عزّى حتّى في المرأة حين ماتت أو شارك في تشييعها، لكنّه وجد ما يمكن أن يبقيه قريبًا من صراع ما هو اخترعه بنفسه، وربما يطفئه بإرادته ذات يوم.

جلست مع الممثّل الهزليّ القديم أمام بيته ساعة أو أكثر، ثمّ انصرفت وذهني مشغول بذلك الولد الذي لن أصنّفه عاقًّا ولا كئيبًا، إلّا بعد تدقيق كبير في معطيات سيرته. ربّما حارب بالفعل في الجنوب كما ذكر في أوّل يوم شاهدته في قسم النساء، أسوة بكثيرين من أبناء جيله، أخذوا إلى الحرب عنوة بتجميعهم من الشوارع والحانات وكل الشروخ الحادثة في البنى الاجتماعية، وربّما لا

يكون حتّى غادر المدينة الساحليّة مُذ أخفق في دراسة الطبّ وعاد من العاصمة، واختباؤه عن أهله هو اختباء محلّيّ صرف – وأعرف كثيرين يتركون بيوت الأسرة لهدف هم وحدهم يعتبرونه كبيرًا وساميًا، بعضهم في عشق امرأة أحبّها، لكنّ الأسرة لن تحبها، وبعضهم ينغمس في أجواء واحدة من تلك الطرائق الصوفية المنتشرة بشدّة في كلّ المدن والقرى، يتلقّون أورادًا غليظة وطقوسًا غريبة، تستوجب طاعتهم لها، ويُسخَّرون من قبل آخرين أكثر سطوة في الخدمة الشاقّة التي بلا أجر.

عبد المطّلب عثمان أو مجهول كان في النهاية واحدة من تلك الحالات التي لن يمضغها الآباء ويبصقونها بسهولة، كما لن يحشروها أيضًا في الثرثرة التي قد تتّقد هنا وهناك، فدائمًا ثمّة دفء في القلب محجوز لعودة الغائب التي يتوقّع حدوثها مهما طال الزمن.

حين علم عثمان تسلية بتقفّي ابنه لي، اعتبر ذلك، رغم انزعاجي منه، بشرى خير. فعبد المطّلب موجود في المدينة، وربّما يضعف يومًا ويعود إلى الأسرة. لا أحد يلومه، حقيقة، لأنّه لم يكمل دراسة الطبّ، وهناك كثيرون لم يكملوا حتّى رضاعتهم، أو التعرّف إلى أثداء أمّهاتهم، وأصلًا لم يكن أحد يتوقّع أن يراه طبيبًا في يوم من الأيّام. هي فرصة جاءته، ويبدو أنّها فرصة غبيّة، جاءت للشخص الخطإ، الشخص الذي لم يغتنمها، ويزهو بها، وأيضًا يرفع بها رأس أسرته. وفي تلك الأيّام، كانت الرؤوس المعنويّة عصيّة ولا ترتفع إلّا بدراسة الطبّ أو الهندسة، وكل الأغنيات التي يمكن تضفيرها تحيّة للمهن، لم تكن تتضفّر إلّا لتحيّي الأطبّاء والمهندسين، ومنها أغنية تقول أنّ الأطبّاء تزوجوا منّا، والمهندسين جاؤوا وخطّطوا عشّ الزوجيّة، أمّا الآن، فقد تغيّر الأمر بالقطع، وبات التشرّد من وظيفة إلى أخرى عند كثيرين عملًا أخّاذًا، الهجرات من ظلّ البلاد الغشيم إلى ظلال بلاد متحضّرة بعيدة، عملًا أخّاذًا، والموت في البحر والبرّ بحثًا عن لغة، عن شخصيّة، عن مأوى حرّ، يتكرّر باستمرار، ولا ينظر إليه أكثر من كونه عملًا عاديًّا، لا يلفت النظر.

مؤكّد سيكون «مجهول» شخصًا آخر لو جاء في زمن آخر. أمّا الآن، فهو شخص عاديّ فقط، مسكين ومجروح وأظنّني سأتعاطف معه.

تركت حيّ كوريا في ذلك اليوم الغريب، وكلّي أمل بأن ألقاه في مكان ماء، في بؤرة ما، مصادفة أو عمدًا، أتحاور معه بلا تشنّج إن رضي بحواري، وربّما نتحدّث معًا في سبب وفاة شريفة مختار، وأسباب وفيّات كثير من الناس، هبطت قلوبهم من أبراج مانهاتن. كنت أبتسم وأتذكّر عبارته، وأخال أميركا كلّها تبتسم حين تعرف أنّ أبراجها الإسمنتيّة القاسية تلك، معروفة حتّى لولد متشرّد في بلد بعيد، ولد لم يكمل دراسة الطبّ وتخصّص في مضايقة الأطبّاء.

كان من الأشياء التي قالها والده أثناء تلك الساعة التي أمضيتها معه، أنّ عبد المطلّب بحث في أحد الأيّام عن الطبيب الذي كان مشرفًا على ولادة أمّه ساعة ولدته، وماتت بنزيف حادّ حدث فجأة بعد الولادة، فوجده شيخًا مسنًّا تجاوز الثمانين، ونسي حتّى أنّه كان طبيب توليد في يوم ما، خاض معه نقاشًا لم يكن متكافئًا، وهدّده بالسجن وسأله عشرات المرّات عن سبب موت أمّه، والرجل لا يستطيع أن يتأكّد إن كان أشرف على ولادة امرأة من قبل، أيّ امرأة حتّى، وليست أمّ «مجهول» بالتحديد.

ذهبت إلى عيادتي في ذلك المساء ولا أزال مشوّشًا، قبلت عددًا من المرضى المسجّلين، ولم أقبل آخرين، وقلت لممرّضي القديم المتمكّن، أنّ صديقي الذي جاء لزيارتي منذ يومين قد يأتي اليوم، لأمر ضروريّ، وعليه أن يدخله، فاستغرب الممرّض الذي كان لاحظ استيائي في المرّة السابقة التي زارني «مجهول» فيها، إلى درجة أنّني لمته على إدخال متشرّد ادّعى أنّه صديق...

أمضيت ساعة مع مرضى مختلفي العلل والأمزجة، أبرزهم شرطيّ سابق في أمن حراسة الميناء يعاني من ارتفاع طفيف في ضغط الدم، ويمكنه أن يستلم علاجه من أيّ صيدليّة، في أيّ ركن ويمضي، لكنّه اعتاد زيارتي مرّة في الشهر، لا لشيء سوى ليحدّثني بلا كلل عن عصابة أركة، التي كوّنها مواطن من قبيلة محلّيّة، وكادت تستولي على مئات الأصناف من البضائع الموجودة في الميناء، وكيف أوقع بها، واستردّت الدولة هيبتها وكرامتها.

أيضًا، جاء نور الدين، وكان صبّاغًا متوسّط العمر استعنت به في طلاء الأبواب والنوافذ حين افتتحت العيادة، واعتاد أن يأتي مرّة كلّ شهر، يتحدّث خلالها عن ضرورة تحسين الطلاء، ولم يكن الطلاء بحاجة إلى تحسين، ثمّ يستولي على جنيهات عدّة ويمضي. أمّا حين دخلت تلك المرأة المصريّة أمّ أمير التي تسكن في الجوار مع زوجها عامل البناء وتقرأ الكفّ في الحيّ، وتتعالج من تشنّجات المرارة وأوجاع الركبتين، وكل أمراض السمنة الأخرى، فلم أسألها عن شكواها، ومددت لها كفّي لعلّها تعثر في الخطوط المتعرّجة على حظّ.

لقد اعتدت على هذا العالم. في الواقع أحببته، وأجد نفسي أضجّ شوقًا للعودة إليه كلّما ابتعدت ولو لأيّامٍ معدودة.

ساعة أخرى أمضيتها مع الفراغ، أطالع رسومات بدائيّة لمحاقن، وأدوات تعقيم، وكراسٍ وطاولات للكشف، معلّقة بعشوائيّة على الحائط أمامي. أطالع صورًا لأطبّاء مرّوا على الممرّض في حياته العمليّة قبلي وتركوا عنده تلك الصور كتذكارات وعلّقها من دون اعتراض منّي، صورًا لرئيسي جمهورية راحلين كانا يبتسمان ولا أعرف لماذا يبتسمان، وما ضرورة وجود الصورتين في عيادة طبّيّة. أتأمّل الفراغ بين الباب المغلق وبيني وأدخن في شغف، و«مجهول» لم يأتِ.

لن يصدّق بالتأكيد أنّني سأبتسم له حين أشاهده، وأطلب منه الجلوس، وقد أرسل ولدًا من أبناء الحيّ، أجده يلعب بالطين والحجارة، بالقرب من العيادة، أو حتّى ممرّض العيادة نفسه، لإحضار مشروب بارد.

«مجهول» لم يظهر في ذلك اليوم، وظلّت أفكاري تلاحق آثاره، وترسم عددًا من السيناريوات المحتملة لغيابه، كان أفضلها أن يكون تخلّى عن مطاردتي فجأة كما بدأها، وأسوأها أنّه مات في حادث ما، في طريق خطر، أو في واحد من تلك الأحياء العشوائيّة التي تتّخذ العنف وسيلة دائمة للحياة.

بعد ذلك بثلاثة أيّام تقريبًا، وكنت في قيلولتي العاديّة في البيت، أخبرتني واحدة من أخواتي الصغيرات أنّ ثمّة شابًّا بالباب يسأل عنّي. سألتها عن أوصافه فردّت أنّه قصير وأصلع، ويرتدي سروالًا رماديًّا تبرز من جيبه ورقة، أسرعت أركض إلى الباب وأنا أوقن تمامًا أنّه غريمي، لكنّي لم أعثر على أحد، وكانت هناك ورقة أو في الحقيقة قطعة بيضاء من الكرتون، ملصقة بالباب ومكتوبًا عليها:

ما هو سبب الوفاة في حادث شريفة أيّها الطبيب البارع؟

تلفّتّ يمينًا ويسارًا ومددت بصري في الميدان الواسع الممتدّ أمام بيتنا، ولم أحس بشيء غريب... كان بعض الصبية يلعبون كرة القدم في حماسة بالغة، ودرّاجة هوائيّة تسير مبتعدة، ونساء من سكان الحيّ كما يبدو، مزركشات بثياب ملوّنة، يمشين على مهل، ولا شيء آخر، انتظرت أكثر من ساعة أمام البيت، واقفًا مرّة، وجالسًا على دكّة حجرية متربة مرّة أخرى، وأنا مستغرب من انقلاب شعوري بهذه الدرجة من غيظ وارتباك تجاه الولد المتشرّد، إلى لهفة للقائه.

اعتبرته بلا شكّ شخصيّة غريبة، شخصيّة ذات طعم خاصّ، والشخصيّات الغريبة لها وقعها واحترامها عندي، حين تضحكني أضحك بطريقة مختلفة، وحين تبكيني أبكي أيضًا بطريقة مختلفة عن البكاء العادي.

تشرّد وبنطلون رماديّ رثّ، وورقة تطلّ من الجيب، وصوت يلوك الكلام جيّدًا قبل أن يلقيه، وسؤال وحيد لا يتجدّد. إنّها معطيات شخصيّة جدباء في الواقع، وخصبة جدًّا إذا ما أعيدت صياغتها أو جُدّد طلاؤها بأيّ لون من تلك الألوان المتاحة في الخيال.

في المساء، كالعادة ذهبت إلى العيادة، وأيضًا فوجئت هناك بلافتة كرتون معلّقة على الحائط قريبًا من الباب، مكتوبًا عليها بحبر أحمر عريض وبخطٍّ ملتوٍ من الواضح أنّه قصد أن يكون ملتويًا:

ما سبب الوفاة الفاجعة في حالة شريفة مختار أيّها النطاسيّ العظيم؟

تضايقت قليلًا من تلك اللغة المستهزئة، ومن طريقة تحليق الولد في أماكني من دون أن يظهر كما ظهر من قبل، لكن ما لبثت أن أحسست بطعم مغاير للعبة التخفّي هذه، أضفتها إلى بهارات الشخصيّة المضطربة. أخرجت قلمًا أزرق من جيبي كتبت فيه وببرود شديد:

هبوط في القلب... هبوط في القلب... هبوط في القلب.

ودخلت لأمارس عملي المعتاد في رؤية مرضى معظمهم يأتون بلا أيّ علّة ظاهرة، فقط ليشتروا إحساس الطمأنينة الذي ربّما يكون وقودًا لاستمرار الحياة.

كان من ضمن المرضى في ذلك اليوم صينيّ مراهق وعاطل عن العمل، يقيم في غرفة كئيبة في حيّ النور، وذكر بلغة إنكليزيّة مضطربة أنّه كان يعمل بحّارًا في سفينة يونانيّة، وعلق هنا بإرادته حين أحبّ فتاة تعرّف إليها في الشارع. قال أنّه غيّر عقيدته فورًا، وسمّى نفسه ربيع لأنّ الفتاة كان اسمها ربيعة، وبرغم ذلك أخفق حبّه بسرعة، فقد تركته الفتاة سريعًا بلا أي مقدّمات.

كان مكتئبًا يحتاج إلى عناية طبّيّة أوّلًا، وإلى مجهود كبير حتّى يعود إلى عمله السابق بحّارًا في السفن، لا علاقة له باليابسة والبنات اللائي يقمن في اليابسة.

كتبت له مضادًّا للاكتئاب ومضى. وأحسست بالزهو حين دخل الحاج راضي، وكان رجل أعمال وصاحب فندق صغير في وسط المدينة، ويمكنه أن يتداوى عند أكبر طبيب متاح، لكنّه تعلّق بعلاجي، وترك الوسط المضاء ليفحصه طبيب في طرف مظلم من المدينة.

حين خرجت في التاسعة وقبل أن أركب سيّارتي، تفقّدت لوحة الكرتون عند الباب بدافع فضول قوي، وجدت قد أضيفت إليها عبارة:

هل هبط القلب من برج في مانهاتن؟ هاتِ إجابة تقنعني أيّها الطبيب.

فكتبت: ربّما تحصل على إجابة أخرى حين أراك.

# 14

توطّدت علاقتي بتلك الأسرة الغريبة كثيرًا في زمن بسيط، هو الزمن الذي تمدّد بين غيظي وارتباكي من «مجهول»، واندماجي بعد ذلك في مخاطبته بتلك الطريقة المختلفة، طريقة اللوح الخشب الملصق على حائط في بعض أماكن وجودي التي كان يعرفها كلّها، وهي في الحقيقة أماكن محدودة للغاية.

كنت أذهب إلى حيّ كوريا في الجانب الجنوبيّ من المدينة بتلقائيّة شديدة، ألتقي بالممثّل عثمان تسلية في صالونه الذي سماه الصالون الفاخر، وكان في الواقع عبارة عن مقعدين من البلاستيك القديم، أحدهما بظهر مكسور، موضوعين في الشارع وأمامهما طاولة خشبية صغيرة عليها ترمسا شاي وقهوة، وبعض الأكواب، ولا شيء آخر.

كان كما أخبرني لا يغادر مكانه إلّا آخر الليل، بعد أن تتوقّف ضجّة الطريق تمامًا، وتنقطع التحايا والسلامات، والأصوات المنغّمة أو الجارحة، يساعده شابّان متطوّعان من الجيران، يحملانه ويضعانه على سريره داخل البيت. وفي الصباح وقبل أن تشرق الشمس تمامًا، ويبدأ الطريق في إشعال فوضاه، يعودان، يحملانه من السرير، يضعانه على كرسيّه في صالونه المفتوح الذي تمرّ عبره كلّ غرائب الطريق، وثوابته وأشياؤه الشاردة أيضًا. كانت موارده محدودة كما أخبرني ويعيش مع امرأته التي تزوّجها بعد وفاة زوجته الأولى، أم «مجهول» ولم ينجب منها. يعيش من إيراد دكّان صغير يملكه في سوق المدينة الكبيرة، يؤجّره لحلّاق هنديّ اسمه شانتي. لم يفكّر في البحث عن طرف صناعي لساقه المبتورة، ولا حتّى امتلك عصًا صلبة وجيدة تساعده على المشي أو على الحركة في محيط ضيّق، لكنّي جلبت له واحدة وابتهج بها كثيرًا، بالرغم من شكّه في أنّه قد يستخدمها.

لم تطرح فكرة إيجاد مقعد متحرّك أبدًا، أو طرحت ولم يكن طرحًا جادًّا، لأنّ الرجل أكّد بإصرار أنّه لا يتحرّك إلّا من الداخل إلى باب الشارع ومن باب الشارع إلى الداخل، ويقضي أشياءه الملحّة في البيت، مثل الاستحمام وغيره، بمساعدة زوجته.

كان في الواقع يجلس على كرسيّه في الشارع منذ أكثر من سبعة عشر عاما، تأتيه الأخبار المهمّة وغير المهمّة، يحتفظ ببعضها ويحاول أن ينسى بعضها الآخر، أخبار الحزن والموت، والهجرات البعيدة، والزواج والطلاق التي يحاول طردها، وتبقى معلّقة في الذهن دائمًا.

دخلت ذلك البيت الذي يبدو من الخارج مرتّبًا وجميلًا. لم يكن كذلك أبدًا. كلّ شيء فيه قديم، ومتداع، حيطان الغرف، قطع الأثاث، الحمّامات، مراوح الكهرباء، لكن أفضل ما فيه تلك الذكريات المنتقاة بعناية لزمن مضى كان فيه تسلية محاطًا بالصيت ويلتقط الذكريات هنا وهناك ويعلّقها في كلّ ركن. لقد كان خلف الفكاهة والتحليق في المسارح، والصيت الكبير، قتامة عظيمة إذًا، لن تكتشف إلّا مصادفة، ومن خلال قصّة صغيرة بطلها ولد ترك حياته المضيئة كلّها، إن صحّ التعبير، وانطلق خلف حياة غير واضحة، وفي الحقيقة غير مبرّرة.

لا أدري لما شدّتني تلك الأحاديث التي لم تكن هزليّة ولا وردت فيها سيرة «مجهول» إلّا نادرًا، وحين يجب أن ترد، لكنّه بالتأكيد ذلك الطمع بالظفر بحكاية ليست طافية في بحرٍ ما لالتقاطها، ولا موجودة على طرف لسان ليدلقها مع الثرثرة، ولكنّها عميقة عند رجل كان يعرف الحياة جيّدًا في الماضي، وعرفها أكثر حين أوشك على التقاعد عنها بانضمامه إلى وظيفة السكون تلك.

لأوّل مرّة، أعرف أنّ أحد المطربين المعروفين المتأنّقين دائمًا كان عاملًا في وظيفة حمّال في الميناء مرّت على ظهره آلاف الطرود والأجولة، قبل أن يكتشف أحدهم صوته المغرّد ويرتقي به الصوت إلى أعلى درجة في النجوميّة. ذلك المتسول العجوز الذي يلقّب بالغراب، ويجلس مغطى الوجه، ومادًّا يدًا نحيلة في ركن من أركان سينما الشعب، كان في الأصل تاجر بقوليّات ثريًّا، قبل أن تتبدّد ثروته على يد امرأة من الحبشة. وتلك المرأة الساحرة التي تشاهد أحيانًا في الاحتفالات العامّة، تقدّم الزهور والحلوى للضيوف المهمّين، هي في الحقيقة ولد لإحدى الأسر الكبيرة، تحوّل بمحض إرادة عمياء إلى فتاةً.

وحين تحدّث عن شهرزاد، المرأة الستّينيّة المجنونة التي تحوم في السوق والمستشفى وأمام مدارس البنين، ودواوين الحكومة، فاردة ضفائرها المصبوغة بالحنّاء، ورافعة رأسها بصلف، والتي قيل أنّها ملهمة شعراء حقبة الستّينيّات في المدينة، قال بتشنّج: كذب... كذب، لا تصدّق ذلك. كانت جميلة حقًّا، وملهمة لكلّ شعراء الدنيا حقًّا، لكنّ الشعراء كانوا يخافونها، ولم يستوحوا بيتًا شعريًّا واحدًا.

سألته عن الشارع الذي يجلس فيه، والشارع المقابل والخلفيّ، وأكّد أنّ كلّ شارع في أيّ حيّ في أيّ مدينة في الدنيا له سلطة عظيمة يحكم بها، وله رؤساء يتحكّمون في السلطة، وهو شخصيًّا يتحكّم في ثلثي شوارع حيّ كوريا لأنّ الجالسين الآخرين في الشوارع ما زالوا يملكون سيقانًا

يتحركون بها ويزورونه ويمدّونه بكل المعلومات عن طيب خاطر. وأذكر بالفعل أن جالس شوارع آخر اسمه الفيل شاكر، وكان ضخمًا كاسمه، وفي منتصف العمر، زاره مرّة وأنا عنده، وقدّمني له بوصفي طبيب العائلة، لكنّ الفيل لم يكن شارعيًّا غشيمًا، لم ينظر إليّ إلّا بطرف عينه، وردّد: «لا أدري لماذا يذكّرني بغرفة الولادة في المستشفى.»

ثمّ ضحك وكانت أصعب ضحكة أسمعها، صعبة في تضفيرها ونغمتها ولا أدري كيف توجد ضحكة بهذا المستوى الغريب.

وفي مرّة أخرى، جاءت امرأة من شارع بعيد في الحيّ، كانت صغيرة إلى حدّ ما، وتسمّى تسلية خالي، وأكدت في حوالى نصف الساعة التي أمضتها معنا، وجودَ جريمة شرف في شارع مجاور لشارعها، ذكرت فيها القاتل والقتيلة، والطفل الذي كان في الأحشاء، وموعد الجريمة، والدافع إليها، وقال لي عثمان بعد أن انصرفت: تعرف يا دوك، لولا أنّ سعديّة هذه امرأة، لما وجدتها داخل بيتها أبدًا... إنّها جريئة وذكوريّة، فقط تخاف من الصراصير.

قال وأراد أن يضحك لكنّ ضحكته لم تخرج جيّدًا، في الواقع لم تكن حتّى ابتسامة، إنّها قرقرة حلق توقّفت في منتصف الاشتعال.

كانت امرأة تسلية، شبه صامتة، امرأة في حوالى الثامنة والخمسين، اسمها سعيدة، لا يبدو في وجهها أيّ أثر لماض أو حاضر أو مستقبل، مجرّد امرأة موجودة، قطعًا تغسل وتكنس وتطبخ الطعام، وبالطبع تساعد زوجًا مبتور الساق على الحركة البسيطة في المنزل، ولكن ليست لها أيّ حياة خارج ذلك... هي لا تجلس في الشارع وغالبًا لا تحبّ حكايات الشارع، وسألتها إن كانت ستساعدني إن كتبت قصّة زوجها ذات يوم، فهزّت رأسها وابتسمت واحدة من الابتسامات التي بلا تفسير محدّد، لا هي ابتسامة رضا ولا ابتسامة سخط ولا ابتسامة أيّ شعور آخر.

سألتها مرّة أخرى، وضغطت في سؤالي، فردّت وبصوت خفيض للغاية، أنّها لن تساعد في شيء، لأنّها لا تعرف قصّة زوجها، وكان ردًّا أكده الزوج بكثير من التهيّج، أنّ المرأة مهما أكرمت، وأحبّها الزوج وأخلص لها، تظل بعيدة عن طموحاته وآماله.

في تلك الأيّام، لم أكن في الحقيقة أنوي كتابة قصّة على الإطلاق، ولا كان عندي وقت لكتابتها أصلًا، حتّى لو قرّرت ذلك، كنت فقط أتحدث إلى المرأة المتكوّمة في داخلها، لا تودّ أن تبرحه، وأظنّني لم أنجح في إيقاظها قطّ.

# 15

بالنسبة إلى عبد المطلّب مجهول، كانت المسألة أغرب في الحقيقة!

كنّا بالفعل اندمجنا في لغة اللوح أو السبّورة تلك، ولم أعد أطمح إلى لقائه ولا هو عاد لاعتراض طريقي مرّة أخرى، وطرح سؤاله البدائيّ ذلك.

لا أدري حقيقة، لكنّي ربّما كنت أعدّ ومن دون أن أدري لكتابة صفحات الغرابة هذه منذ ذلك الوقت. لم أخطّط لأيّ شيء فعليًّا، وتلك القصّة الواقعيّة عن مجهول، كان فيها بعض التضاريس، وبالرغم من ذلك، ظلّت أفكار كثيرة التقطتها منذ زمن بعيد، تحوم في ذهني سنوات، وخرجت إلى الوجود في قصص بعضها كئيب وبعضها مبهج، لكنّ قصّة مجهول لم تكن من ضمن ما يحوم داخلي، حتّى بعد نهايتها الصادمة.

الذي حدث أنّ جميع المقيمين في بيتنا، بمن فيهم والدي ووالدتي، والخادمة العجوز البدينة: تهاميم، والشاب جمعة الذي يأتي مرّتين في الأسبوع لغسل الملابس وكيّها، عرفوا بأمر مجهول بسؤاله المتكرّر عن سبب وفاة امرأة لا يكاد يعرفها ولم يلتق بها إلّا نادرًا، ماتت في قسم النساء والتوليد، بمحاولاتي الحثيثة لإخراجه من كآبته، التي أقوم بها. منهم من تحمّس لتلك المحاولات، ومنهم من سخر منها بشدّة، لكنّ أحدًا لم يعترض حين وضعت لوحًا حقيقيًّا من الخشب، مطليّا بالأسود، في حوش البيت، قريبًا من الباب الذي اتّفقنا أن يكون مفتوحًا طوال ساعات النهار، وجزءًا من المساء، ونبّهت مجهول إلى وجوده بورقة علقّتها في الشارع. كنت أكتب على اللوح صباحًا وعند عودتي من العمل، وفي الليل أحيانًا، كثيرا من الملاحظات التي أودّ أن يعثر عليها مجهول، وأجد ردّه إمّا مقتضبًا وإمّا مفصّلًا، يحكي باطّراد عن وقائع مرّت في يومه.

أيضًا، كان ثمّة لوح آخر ملتصق بباب العيادة في حيّ النور، أكتب عليه أحيانًا وإن كان مصدر إزعاج لي في معظم الأحيان، ذلك أنّ تلاميذ المدارس والمراهقين وكثيرا من الفضوليّين المتسكّعين في الشارع، كانوا يكتبون عليه عبارات فجّة من نوع: إدريس يحبّ سوما، وحليمة الجميلة لا تحبّ الرجال، وأنا ديجانقو عاشق الشاشة الفضيّة، وأشياء أخرى فيها رداءة وسوء

أخلاق، ما اضطرني لإزالته بعد أقلّ من أسبوع حين وجدت عليه رسمًا جنسيًّا فاضحًا، خطّه موهوب فاجر.

أصلًا، وسط كلّ تلك التعليقات، لم أكن لأهتدي إلى التعليق الذي قد يكون بقلم مجهول.

في المستشفى، أعني قسم النساء والتوليد، لم نكن نتبادل أي أسئلة أو أجوبة. كان مجهول يمرّ من حين لآخر كما أسمع من آخرين، تعرّفوا إلى هيئته، وأتقنوا تفاصيلها، لكنّه يحرص على عدم الالتقاء بي، والمرّة الوحيدة التي خيّل إليّ أنّني شاهدته فيها، وأسرعت لأمسك به، وأجرّه إلى الواقع، كانت مجرّد تخيّل. صحيح كان ثمّة ولد أصلع بسروال رماديّ، وورقة تبرز من جيبه، لكنّه لم يكن مجهول. كان في الواقع عامل صيانة من عمّال المستشفى، لا يشبه مجهول في أيّ شيء.

على مدى ثمانية أشهر كتبت على السبّورة في حوش البيت أشياء كثيرة، كتبت مثلًا:

– عندي هديّة جيّدة لك إن كنت تقبلها منّي.

ردّ:

– أقبلها بحسب نوعها.

كتبت له أن يذهب إذًا إلى خيّاط من أبناء الغرب واستقر في الساحل، اسمه خميس جمعة سبت، أتعامل معه منذ سنوات طويلة، ووصفت له قياسات الولد كما هي في ذهني، وأوصيته أن يخيط له قمصانًا وسراويل جديدة بألوان مختلفة في أسرع وقت، وقام بذلك بالفعل، لكنّ مجهول لم يذهب إلى الخيّاط قطّ، وظلّت تلك الهديّة التي لم تكن مكلفة كثيرًا، قابعة في مكانها عند الخيّاط زمنًا، قبل أن يتخلّص منها.

كتبت له تلك الأيّام: لماذا لم تستلم هديّتك؟

ردّ: لا تناسبني... آسف.

وكان زمنًا طويلًا أمضيته أحاوره بطريقة الكتابة نفسها عن الذي يناسبه في الحياة ولا يناسبه، إلى أن توصّلت إلى استنتاج أظنّه أقنعني.

في الحقيقة، مجهول لم يكن يناسبه أيّ تجديد في ملابسه أو أكله الذي يقتات به من المطاعم الشعبيّة، أو نمط حياته عمومًا. سيظلّ في الغالب بتلك الهيئة التي رأيته بها أوّل مرّة في قسم النساء والتوليد، وحين يستيقظ فجأة من تلك الحوارات الهادئة التي جرفته إليها، إلى درجة أن نتحدّث أحيانًا عن الحبّ والسياسة وكرة القدم، والتدهور الاقتصاديّ في البلاد، وتوعّك الديمقراطيّة والهجرات المكثّفة إلى الخارج، من دون أن نلتقي، سيبحث عن صراع جديد، سيخترع صراعًا آخر يطارد به طبيبًا ربّما لا يقدر على صدّه أو لا يملك صدرًا واسعًا لاستيعاب سخافات متشرّد، وربّما يبلغ عنه السلطات بالفعل، أو يشتبكان في قتال حقيقيّ يخسر فيه الطبيب مكانته أو حتّى نفسه.

ليس كلّ مهنيّ من عشاق الغرائب، ليهبها وقتًا.

في إحدى المرّات كتبت له:

لو عدت إلى كلّيّة الطبّ مرّة أخرى، هل ستكمل دراستك وتتخرّج طبيبًا؟

كان سؤالًا عاديًّا في المطلق، لكنّه في حالة مجهول لم يكن عاديًّا، وقصدت ألّا يكون كذلك، إنّه السؤال الذي سيحوم حول العقدة ويفكّها أو يزيدها تعقيدًا، وأظنّه قد زادها تعقيدًا.

لم أجد ردًّا في اليوم الأوّل ولا الثاني. في اليوم الثالث، كتب:

– كنت سأتركها بعد فصلين دراسيّين، وأخرج لأتحرّى عن أخطاء من يدّعون علاج الناس، وهم يقتلونهم. قل لي: ما سبب الوفاة الحقيقيّة للسيّدة شريفة مختار؟

عدنا إلى نقطة الصفر إذًا، وتوقّعت أن يظهر حاملًا الورقة مرّة أخرى ليقرأ لي بيانات المتوفّاة: تاريخ ولادتها ووفاتها، وسبب دخولها المستشفى، وبدأت أستعدّ لذلك بالفعل، لكنّه لم يظهر أبدًا.

يومان آخران وعادت لغة الودّ الهادئة إلى السبّورة، تفقّدتها في أحد المساءات ووجدته رسم زهرة لوّنها بالأحمر، فرسمت له ابتسامة ردًّا على زهرته غير المتقنة.

لم يكن أحد من العائلة قد رأى «مجهول» أو أحسّ بأثاره وهو يدخل البيت ويخرج منه، كأنّه يأتي مسحورًا بالخفاء ويخرج بلا قدمين تحدثان الضجّة العاديّة وهما تتحرّكان، كأنّه لا يأتي أبدًا، بل يرسل شخبطاته عبر الهواء لتحطّ في اللوح، وينتزع بالطريقة نفسها شخبطاتي، ليقيّمها ويرسل الردّ.

وفي مرّة أخرى، كتبت له بعد زيارة طويلة إلى والده تعمّدت فيها أن آتي بسيرة مجهول وأقول أنّه أصبح صديقًا لي. سألني الأب يومها بلهفة:

– معقول؟ هل صادقك فعلًا؟

– نعم، وهو صديق لطيف وطيّب.

– إذًا، أحضره بأيّ طريقة، أودّ رؤيته.

بكى العم، بكى فعلًا ذلك البكاء الذي أجده ضروريًّا لعينيه، يغسلهما من الرمد والغشاوة، لكنّه ليس ضرورة كبيرة لمشاعره التي ينبغي أن تكون ابتعدت الآن من سكّة الولد المشرّد.

– سأحاول إحضاره.

قلت ولم أكن واثقًا.

كتبت له: مجهول، اذهب لرؤية والدك المسنّ، اذهب أرجوك.

وجاء الردّ لطمة كبيرة لي وللوح الكتابة الذي خطّ عليه:

لا يعنيك أمر علاقتي بوالدي. اهتمّ بشؤونك...

قاطعني بعد تلك الجملة أسبوعين كاملين، ظلّ اللوح خلالهما نظيفًا من أيّ شخبطة. كتبت عليه بعض الاعتذارات لكنّي لم أتلقّ ردًّا. كنت أذهب إلى عيادتي وأعود، أتفقّد الكتابة ولا أجد فيها جديدًا، أذهب إلى قسم النساء، أعمل بجدّيّة كبيرة، وأعثر أحيانًا على لحظات فراغ، أبحث فيها عن آثاره هنا وهناك، ولا أعثر على شيء. ذهبت في جمعتين متتاليتين إلى ميدان الكرة الترابي في وسط المدينة، مرّنت ساقيّ بلا حماسة، ولم أكن أتوقّع أن أجده، لكنّني أقسمت في داخلي إن عثرت عليه، أن أجرّه وألقي به أمام والده، ربّما يستيقظ بالفعل من غيبوبة سنوات طويلة أمضاها، لا أقول ولدًا عاقًّا، بل ولدًا في داخله عقدة أبت أن تحلّ.

إلى أن عاد وأخبرني بما ظننته تقدّمًا كبيرًا في تعديل المعوجّ، بأنّه يقيم في هذه الأيّام علاقة حبّ جادّة مع فتاة رائعة اسمها إخلاص، صادفها في أحد باصات النقل العامّ، وكانت سقطت منها محفظة جلدية صغيرة، أسرع بانتشالها من الأرض، وناولها إيّاها. قال:

– إخلاص شيء آخر، إنّها فتاة أحلامي. سأتزوّجها ولن أتركها تضع أطفالنا بإشرافكم أبدًا.

ابتسمت، فأنا ممّن يؤمنون بأنّ الحبّ قد يشكّل درب خلاص محتمل من شقاء مزمن، وبأنّ العثور على ما يسمّى فتاة الأحلام عند كثيرين، هو وهمٌ يظلّ أكثر صدقًا من الحقيقة. فهم يعثرون على فتاة ابتسمت أو ضحكت أو أبدت رقّة ما، أو تجاوبت برقيّ حين أهدوها زهرة أو عطرًا أو ثوبًا مطرّزًا بألوان قوس قزح، فتاة ربما تكون عاديّة جدًّا، ستخدم تلك الخدمة المنهكة لو وضعت في البيت، أي بيت، وفقط تلك التجاوزات الحالمة التي لا تأخذ وقتًا طويلًا وتنقشع عادة، أكسبتها صفة الأحلام.

ابتسمت مرّة أخرى بمكر، وأنا أتذكّر مراهقتي التي كانت مفعمة بفتيات أحلام عديدات، سأكتشف لاحقًا أنّ لا واحدة منهنّ كانت تصلح لملء ثغرة في حلم، سأعشق فتاة الجيران إيمي التي تفتّحت المراهقة على وجهها، وعطرها وصوتها الجميل حين تترنّم بأغنية، سأعشق أخرى في شارع مجاور وثالثة ورابعة صادفتها في طريق ما، في احتفال فوضويّ، في جامعة فيها الخير والشر، والجاذب والطارد، في أيّ ركن مضيء أو معتم في الحياة، وفي كلّ مرّة يتجدّد الحلم بالثوب الذي يريده، ويصبح في النهاية أسًى داكنًا يرتدي ثوب الحلم.

لا مشكلة في أن يعثر «مجهول» على الوهم الذي ينصّب نفسه حقيقة عند كلّ الناس.

كتبت: تهانينا. مؤكّد يناسب حبيبتك عطر فرنسيّ جيّد، ما رأيك؟

ردّ: بالتأكيد. هاته.

في اليوم التالي، وضعت له قارورة من عطر «بويزون» النسائيّ الذي كان من رموز رقيّ النساء في تلك الأيّام، ملفوفة بورق هدايا لمّاع ظهر في المدينة حديثًا وكان تاجر العطور الذي اشتريته منه هنديًّا من سكّان الساحل القدامى، استقرّ منذ زمن طويل، وأنجب سلالة هناك، وأنشأ

علاقات تجاريّة جيّدة، مع الريّاض وجدّة في السعوديّة، ولم يكن أحد يملك عطورًا جيّدة غيره وفي الحقيقة حتّى العطور الرديئة لم تكن توجد إلّا عنده وحده.

وكانت فرحتي كبيرة حين وجدت أنّ المجهول، أتى، أخذ القارورة، وترك شكرًا كبيرة، مكتوبة بطريقة مميّزة.

كان بي شغف لمتابعة قصّة الحبّ تلك وتمنّيت أن تأتي الفتاة إليّ في يوم من الأيّام لتقول بكلّ بساطة: أنا إخلاص حبيبة مجهول، أقصد حبيبة عبد المطّلب، فبالتأكيد لن يكون اسمه مجهول بالنسبة إليها، بل وحتّى بالنسبة إليّ إن اقتنعت بأنّ تبادل الرسائل بلا وجود فعليّ، يعدّ معرفة تلغي الغموض عن شخص ما، وهو ما لم أكن مقتنعًا به بعد في ذلك الوقت.

# 16

لم أنقطع عن زيارة عثمان تسلية أبدًا، وعن طريقه تعرّفت إلى كثيرين، منهم رجل في مثل عمره تقريبًا، يداه خشنتان ومشقّقتان، وظهره منحنٍ قليلًا، ولا يشكو من أيّ مرض مزمن من تلك الأمراض الخاصّة بالمسنّين مثل السكّر وضغط الدم، وتصلّب العروق، وأقسم لي إنه لم يزر المستشفى إلّا ثلاث مرّات فقط طوال حياته، كانت أولاها في العام 1969، وكانت لخلع ضرس سليم في فكّه الأسفل لم يكن يوجعه قَطّ، لكنّه فقط أحس برغبة قويّة في التخلّص من ضرس من أضراسه، أسوة بكثيرين شاهدهم يذهبون إلى طبيب الأسنان، وآخرها منذ عشرة أعوام حين أصيبت عينه في حادث مهنيّ، واستلزم ذلك دخوله المستشفى، وإجراء عمليّات معقّدة، لم تعد العين بعد ذلك إلى سابق عهدها أبدًا.

الرجل الذي اسمه الزبير الخضر كان يعمل في ما مضى بحّارًا في السفن التي تشقّ بحار الدنيا كلّها حاملة منتجات بلادنا من صمغ وقطن وسمسم إلى بلاد تريدها، وتعود بما نستهلكه من موادّ لا نعرف أين تصنع ولا كيف.

راقت لي صداقة الزبير بشدّة، راقت لي حكاياته عن البحار الموبوءة بالرعب والجنّيّات، وكيف يمكن أن يتحوّل بحر هادئ لطيف في لحظة واحدة فقط إلى جبلَ رعب يمكن أن يبتلع السفينة بكلّ ما تحمله. قال لقد ابتلعنا البحر مرّات عدّة، لكنّنا خرجنا من جوفه. وقال رأيت سفنًا أكبر وأضخم من سفينتنا، مجرّد آثار في المحيطات، تطفو حينًا ولا تطفو أحيانًا. ومرّة، أخرج من جيبه ليفة صغيرة صفراء من تلك التي يمكن استخدامها في الاستحمام، أو في غسيل الأواني المنزليّة، ناولني إيّاها، وكان ملمسها غريبًا، أشبه بملمس أنثى، وقال:

«كانت ملكًا لجنّيّة بحر اسمها الدورة، وأهدتني إيّاها في إحدى الليالي».

بالطبع، توجد حدود للخيال حتّى عند من يتخيّل أشياء، هو يصدّقها ويرويها بمتعة، أنا لم أكن أصدّق ذلك، وفقط أصرّ على أن أصدّقه لأحصل على المزيد، وقد اعتدت منذ تعلّقت بالأساطير، والأجواء الغريبة، أن أهتمّ كثيرًا برواة الكلام، أولئك البسطاء الذين تجدهم أحيانًا يتسيّدون

المجالس، يصيغون حيوات لا يمكن أن تكون كما صاغوها أبدًا، يصبحون وفي لحظة شجن عظيمة وافتتان بما يظنّونه إصغاء كبيرًا مذهلًا من الحاضرين، وزراء في حكومات متمكّنة، وأصدقاء لملوك ورؤساء دول كبرى وصغرى على حدّ سواء، وعشاقًا لنساء على قياس رومي شنايدر، وجينا لولو بريجيدا، ومارتينا نفرتيلوفا. والزبير الخضر لم يخيّب ظنّي من هذه الناحية حين روى أنه أرسى مع الباخرة التي كان يعمل فيها مرّة في ميناء يوغسلافيّ، وفوجئ بأنّ ثمّة امرأة تنتظره وتعرف موعد حضور باخرته بالضبط، وقادته من يده كالحالم لتحطّ به في قصر، وينفق معها سبع ليال كانت من أعذب الليالي التي أنفقها مع امرأة.

سألته: «ولكن، من هي؟»

ردّ: «بقليل من الذكاء يمكنك أن تخمّن أنّها أميرة يوغسلافيّة».

لم تكن يوغسلافيا قبل أن تتمزّق مملكة قط، ليكون فيها أمراء وأميرات. مع ذلك، لم أقلّ إلّا ما يبهج الرجل، وما يجعله أكثر رغبة في ابتكار حكايات أخرى، تضمّه إلى زمرة شخصيّاتي المفضّلة، مثل اليسع بائع الحاجات الغبيّة. لكنّ اليسع كان مجنونًا، وهذا لم يكن كذلك.

نظرت إلى وجهه العجوز المتآكل، وتلك العين الزجاجية المركّبة في المحجر الأيسر، تأمّلت أنفه الغليظ المنصوب بلا معنى جماليّ، وشفتيه الضخمتين كأنّهما لبعير. كان بالضبط عجوزًا سيظلّ مهملًا في أيّ ناصية من نواصي بيت ما، لو لم يكن خياله متّقدًا إلى هذه الدرجة، ويملك إمكانية أن يشدّ إليه مستمعًا يحبّ البدايات الكاذبة، ويستطيع ابتكار نهايات كاذبة لها أيضًا.

صداقتي بالخضر البحار لم تستمرّ طويلًا كما كنت أتمنّى، فقد كان لديه ولد يقيم في أميركا، أرسل إليه في يوم من الأيّام دعوة وتذكرة، ومن يصحبه إلى العاصمة لإتمام إجراءات السفر. هكذا اختفى عن عالمي وعالم عثمان تسلية إلى الأبد، بعد أن كان يأتيه مرّة أو مرّتين في الشهر، يجلس معه في صالونه الفقير، أي شارعه، ويتبادلان الذكريات.

كان من الغرائب التي يمكن أن تضاف إلى شخصيّة البحّار العجوز، أنّ الولد ساكن أميركا، كان اسمه بيكاسو، سمّاه الأب بنفسه ساعة وُلد، وبلا ضرورة لمثل هذا الاسم الذي لم يكن يعني مجتمعه في شيء، ولا هو مدعاة للفخر فيه في أيّ حال من الأحوال، وكنت سألته بدافع الفضول إن كان مفتتنًا ببيكاسو إلى هذا الحد؟ فنظر إليّ نظرة عاديّة وردّ: «من بيكاسو؟».

لم أتشعّب معه في الحديث حول تلك النقطة. كان من الواضح أنّه التقط الاسم من حانة أو زقاق ما من أزقّة الحياة، ولم يدقّق فيه ليعرف أصله وإن كان يصلح لولده أم لا؟

لكنّ أبرز شخصيتيّن عرفتهما من بين الشخصيّات التي تتردّد على صالون تسلية الشارعي، المغنّي عبدالماجد الذي كان يصحب معه العود دائمًا، ويغنّي بصوت وارف وظليل أغنيات حقبة قديمة من حقب الفنّ الوطنيّ، وأيضًا أغنياته الخاصّة التي يغنّيها بشخصيّته كلّها، ويردّد دائمًا أنّها

حياته التي يحياها. كان يأتي في كلّ جلسة بحوالى ثلاث أو أربع قصائد استلمها من شعراء كئيبين، يفردها أمامه على الأرض، ويلحّنها كلّها قبل أن يقوم ويمضي، وقد أخبرني أنّه لحّن بهذه الطريقة كلمات جدّه المخرّفة، وجدّته التي كانت في سكرات الموت، ونميمة النساء التي كان يسمعها في بيته شخصيًّا، وحتّى شتائم وكلمات بذيئة تتردّد في الشوارع. أيضًا، لحّن لافتة عيادة الدكتور فاروق مرقص، المتخصّص في الجلديّة والتناسليّة وأهداه اللحن في شريط كاسيت، وحصل على إعفاء دائم من أجرة الفحص، إن حدث وشكا من جلده، لكن مع الأسف لم تصبه حتّى حكّة بسيطة منذ ذلك الحين ليستفيد من ذلك العرض المجّانيّ.

أيضًا، هناك شخصية إدريس الذي كان ترأّس عصابة إجراميّة ساذجة سطت على مصرف صغير في نهاية الخمسينيّات، في واحدة من السوابق النادرة في ذلك الوقت. أمضى إدريس سنوات في السجن، ثمّ خرج ليعيش بعاديّة مطلقة. كان مهدّمًا بفعل العمر، ومصابًا بضيق الشرايين، ويستخدم عقار النيتروغليسرين تحت لسانه باستمرار، لكنّه مرح وحكّاء، وله شارع في حيّ آخر غير كوريا يراقبه، ويخرج منه بمئات الحكايات.

كنّا نتحدّث مرّة عن مواصفات الزوجة، وطريقة اختيارها، وكان موضوعًا حيويًّا بالنسبة إلى عثمان تسلية، أجده يحوم حوله في كلّ ثرثرة، ويحاول إدراجه خطًّا رئيسيًّا. قال المغنّي عبدالماجد الذي كان حاضرًا، أن الزواج يقتل الفنّ، وشرح عبارته بأنّ المرأة تظلّ جميلة جدًّا ومتوهّجة ما دامت حرّة، تتمشّى بين العواطف كلّها ولا تحطّ على عاطفة منها، أو تسجن نفسها في بيت، ولكن بمجرّد سقوطها في الفخّ الزوجيّ، لن يتغنّى بها أحد. قال وضحك، وترنّم بعوده مردّدًا أغنية اسمها الناعسة ارتجلها شعرًا ولحّنها في تلك اللحظة بالذات.

لا أدري ماذا حدث، لكنّ إدريس لم تعجبه تلك الفلسفة كما يبدو، أو أنّها لامست جزءًا حسّاسًا في مخيّلته، فنهض غاضبًا، وضع الحبّة الموسعة للعروق تحت لسانه وذهب ولم أره هناك مرّة أخرى أبدًا.. لقد نقّبنا في ثرثرتنا ذلك اليوم، أيضًا غربلنا فلسفة المغنّي، لكنّنا لم نعثر في داخلها على أيّ طعم مرّ، كانت مجرّد فلسفة طارئة لا تستند إلى أيّ ركيزة حيويّة، ولا ترقى إلى أن تكون شعارًا ما. على أنّ الأيّام مضت عاديّة، وزالت دهشة ذلك اليوم، ولم يعد أحد يتحدّث عن إدريس أو يتقصّى أخباره حتّى بعد أن سقط بجلطة في الدماغ، وشلل كامل بعد ذلك.

عثمان ألح عليّ كثيرًا، وفي مرّات عدّة أن آتيه بولده المتشرّد، قال أنّه يحس بأنّه لن يعمر كثيرًا، ويودّ أن يراه قبل أن يرحل، وكان «مجهول» في تلك الأيّام قد أبلغني بالكتابة المعهودة، أنّ قصّة حبّه للصبيّة إخلاص، أخفقت وانتهت بسرعة كما ابتدأت، ذلك أن إخلاص لم تصبر على فقره وإمكان أن يجدّد حياته واستجابت لزواج فوريّ سريع من رجل آخر يقيم في ألمانيا، واختفت من حياته.

لم يقل لي أنّه بكى، لكنّي أتوقّع أنّه بكى، وأنّه خرج عن حدّ البكاء المعقول، وأعرف أنّ ذلك حدث، فما دامت المرأة كانت هي الوهم الذي صار حلمًا، فقطعًا تحدث كلّ مضاعفات انهيار الحلم.

أنا جرّبت ذلك وغيري جرّب ذلك، وشاهدت أشخاصًا يعشقون نساء لامعات، ويظلّون يحتفظون بصورهنّ البرّاقة، ويحسون بالانهيار إذا ضاعت الصور أو تمزّقت لأيّ سبب.

جورج مثلًا، الذي كان من الجيران القدامى، كان يعشق صورًا متعددّة لكلوديا كاردينالي، فاتنة إيطاليا القديمة، بكلّ نضارتها. يحتفظ بتلك الصور في خزانة في غرفته وبعضها في المحفظة التي يحمل فيها نقوده، وقد شرع في محاولتي انتحار، لم تنجحا لحسن الحظّ، حين شاهد مصادفة صورًا أخرى للنجمة نفسها، وكانت شاخت فيها وتحوّلت إلى أيّ امرأة عجوز يمكن مصادفتها في الشارع أو عند الجيران أو في صيدليّة وهي تشتري أدوية المرض.

هي لحظة انهيار عاطفيّة لجورج بطرس الطيّب، صاحب المكتبة العامرة في وسط السوق، وكنّا نتزوّد منها بالكتب والمجلات باستمرار.

كتبت لمجهول أسانده وأخبره بأنّ الحياة هكذا، يوم لك ويوم عليك.

ردّ: «لم يكن ثمّة يوم لي أبدًا. كلّ الأيّام كانت عليّ. سأذهب.»

أقلقتني كلمة سأذهب كثيرًا، إنّها أشبه بإشعار انتحار، من الممكن جدًّا أن ينفّذ من واحد بلا سند، ظنّ أنه عثر على السند، ثمّ فقده. وكان من الممكن أن يجعل من والده العجوز سندًا حتّى ولو على المستوى النظريّ، لكنّه يأبى ذلك.

في الحقيقة، كان هذا أكثر ما يحيّرني في الأمر. فما دام والده حيًّا ويريد رؤيته برغم كلّ إخفاقاته، لماذا لا يذهب لرؤيته؟ لم أكن أريد أن أفكّر عميقًا في مسألة ربّما لا تعنيني، مثل أن أتخيّل طفلًا يتيمًا مهملًا في بيت فيه امرأة أخرى غير أمّه، أن أتخيّل الطفل جائعًا، متّسخًا، مصابًا بزكام حادّ أو حمّى ورمد في العينين، أو أتخيّله منتهكًا بحديد محمّى بالنار، لا... لن أتخيّل شيئًا من كلّ هذا بالرغم من إمكانية أن يكون حقيقة، وليس محض خيال.

البيوت المغلقة حتّى لو انفتحت، فهي تنفتح جزئيًّا، تسمح بخروج بعض الظلال المحبوسة، لكن ليس كلّ الظلال.

كتبت له: ستجد فتيات أحلام كثيرات غيرها، أعدك بذلك، ستجد أجمل منها عشرات المرّات.

ردّ في اليوم نفسه: لا أظنّ.

شهران وربّما أكثر، ولم يكتب «مجهول» حرفًا واحدًا على البورد الخشبي الذي ظلّ ممتلئًا بأسئلتي وكنت أجدّدها باستمرار، أتفقّده يوميًّا مرّتين ولا إجابة.

أيضًا، لم يظهر أيّ أثر له في مكان آخر، وإن كان حدسي يؤكّد أنّه لم يقدم على إنهاء وجوده، وأنّه متوفر في المدينة، يحاول أن يعالج انهياره بطريقة أو بأخرى.

لم أكن أعرف بالطبع أين يقيم، وهؤلاء الذين يختارون تشرّد الشوارع، قطعًا يعثرون على بقع يظنّونها آمنة ينحشرون فيها، ومنهم من يقيم مع أغراب يتعرّف إليهم أو يقتحمهم، وتوجد نماذج كثيرة عن غرباء دخلوا خصوصيّات أشخاص لا يعرفونهم أبدًا وتحولوا بالتدرّيج إلى أفرادٍ في الأسرة. حكت لي فاطمة الزهراء، وكانت سيّدة مرحة، وتسكن في حيّ النور قريبًا من العيادة، وتأتي لتعالج مرض السكّر ومضاعفاته، أنّ مليحة، الفتاة التي تزوّجت حديثًا من تاجر سلع تموينيّة متوسّط الحال، وكانت تقيم معهم منذ أكثر من عشر ة أعوام، ليست من أهلهم ولا معارفهم أبدًا، إنها فتاة قدمت من قرية في الريف ذات يوم، لتقيم مع جيرانهم وكانوا من أقاربها، وصودف أنّ لا أحد موجود في بيت الجيران، ودخلت عندهم لتنتظر حضور أحد، ولم تخرج بعد ذلك إلّا إلى بيت زوجها.

لكن «مجهول» ليس من الباحثين عن دفء وإلّا لوجده في بيت والده.

كنت أبتعد وأعود إلى نقطة الوالد والولد، كانت في الحقيقة محورًا بالرغم من ضبابيّتها. في تلك الأيّام بالذات، بدا عثمان تسلية يتداعى بالفعل، ليس تداعي الجسد الذي كان أصلًا مضعضعًا منذ سنوات بفعل السكّر ومضاعفاته، ولكن تداعي العاطفة، تلك التي تمسك بالحياة، وتسيّرها في الاتّجاه المطلوب وربّما ينتصر بها الشخص على آلامه ويعيش.

أصبح وجوده في الشارع صوريًّا، وليس باللمعان القديم. أجلس عنده فأشعر وكأنّني أجلس إلى عمود إنارة من تلك المغروسة في الشوارع بلا إنارة، أو بالضبط ذلك الحجر الكبير الموجود قرب البيت. لم يعد يردّ تحايا العابرين إلّا نادرًا، ولا يصف جسد امرأة مرّت وفي جسدها أشياء كثيرة تحتاج إلى وصف، ولا يصرخ يا ولد... يا ولد، حين يخطئ طفل صغير، ويقذف كرته تجاهنا.

كنت أحضر حقيبتي الطبّيّة أحيانًا، أراجع وظائفه كلّها فأجدها لا تزال تعمل، وإن كان بوهن. تحدّثت معه مرارًا، أخبرته بأنّ يكفّ عن المغص ويعود ليمسك بالحياة من جديد على الرغم من مرّها، فيقول: «حسنًا سأفعل»، ولا يقدر.

كتبت إلى مجهول بخطّ كتابة غاضب: مجهول... والدك يعاني وقد يرحل قريبًا. دع الصلف أو الغباء أو ذكريات الماضي السيّئة إن كانت ثمّة ذكريات سيّئة وعد إليه...

كتبت، وفكّرت مجدّدًا، لماذا أنا عالق في هذه الورطة؟ لماذا أنا هنا في نقاط كآبة ومحطّات سخف من المفترض ألّا تعنيني في شيء؟ فهذه القصّة يجب أن تكون قد انتهت بمجرّد أنّ الولد توقّف عن مطاردتي بأسئلته...

لم أصل إلى نتيجة كالعادة، ودائمًا وفي كثير من المنعطفات التي أحشر فيها حياتي لا أعثر على دافع سوى حبّ الغرابة، والالتصاق بالغرابة، والعثور على موادّ خامّ، ربّما أفكّكها ذات يوم وأعيدها إلى التماسك من جديد.

لكنّ مجهول لم يظهر ليتلقّف النداء ويردّ عليه. انتظرت طويلًا، وزرت الأب مرّات عدّة، ولم يظهر الولد.

في أحد الصباحات أخبرني ممرّض اسمه مصعب، وكان من سكّان حيّ كوريا، يقيم قريبًا من الشارع الذي يراقب عثمان تسلية فورانه منذ قرابة العشرين عامًا، ويعرف صداقتي بالرجل، أنّه توفّي ليلة البارحة في الشارع، ولم يكن معه أحد، فقط انتبهت فتاة كان يعاكسها بمرح وأبوّة ضاحكة، حين تمرّ أمامه، حتّى بعد أن انهزم روحيًّا، إلّا أنّه لم ينظر إليها حتّى حين عبرت قربه في ذلك اليوم وحيّته، فاقتربت منه ولمست رأسه ويديه.

كان متكّئًا على ظهر مقعده، وعيناه مفتوحتان، تطالعان لا شيء.

# 17

كنت مشوّشًا بشدّة بعد أن دفنّا عثمان تسلية، وشارك في مراسم تشييعه إلى مقبرة المدينة القديمة نفر قليل كان معظمهم من جيل تعلّم منه الضحك، والفكاهة، وأسرارَ أن تبقى حيًّا زمنًا طويلًا، بالرغم من أنّ ثمّة داء جسديًّا وعاطفيًّا يلاعبك.

وبالرغم من أنّ معرفتي بالرجل لم تتعدّ تلك الأشهر الثمانية التي صادقته فيها، وبمصادفة بحت، حين سعيت وراء ابنه «مجهول» ولا أعرف أنّه ابنه، إلّا أنّ حزنًا جارفًا امتلكني، كأنّه أبي، كأنّه عمّي أو خالي، أو كأنّه مرحلة خصبة من مراحل العمر كنت أقيم داخلها واندثرت فجأة بلا مقدّمات.

كنت منتبهًا جدًّا إلى أعراض رحيله، وكانت الأعراض نفسها واضحة ولا تحتاج إلى انتباه كبير. موت العاطفة، أو الموت المعنويّ كما أسمّيه، الموت الذي تكون فيه حيًّا تتنفّس، لكنّك خارج الحياة. الشارع كلّه انتبه إلى موت تسلية المعنويّ، وأظنّ شوارع أخرى انتبهت أيضًا.

انتهينا من الدفن قرابة مغيب الشمس، وأنا أتلفّت في لهفة، محاولًا العثور على مجهول وسط أولئك المشيّعين القليلين. لم أكن أريده في المقدّمة، ولكن فقط أردت أن أرى وجهه، وقد تقلّص حزنًا، وعينيه وقد ذرفتا دمعًا، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث مع الأسف، كأنّ «مجهول»، انتهى من صياغة حياته بالفعل بعيدًا عن أيّ سطوة عائليّة، ليست السطوة التي تقبض الروح وتمنع التنفّس بحرّيّة، إنّما سطوة الانتماء، تمامًا حين تتنفض من اتّكائك على وطن أنت داخله، تتمرّد على ظلّك، وهو حيّ يتبعك.

لم أذهب إلى عيادتي المسائيّة ذلك اليوم، ولا كانت ثمّة وسيلة لإبلاغ ممرّضي بأنّني لن آتي، وكنت أثق في أنّ هناك مرضى ينتظرون، وتذكّرت أنّني وعدت امرأة شابّة اسمها النعمة، عاينتها أمس، وتشكو من وجود خرّاج بسيط في الثدي، أنّني سأجري لها عمليّة صغيرة بمخدّر موضعيّ، ذلك أنّها تخشى المستشفيات بشدّة، ولا تستسيغ رائحتها أبدًا، وكم من مرّة أصيبت بنوبات إغماء

طويلة، لمجرّد أن عبرت بجانب المستشفى، وشمّت رائحة السلفا والمرض والمطهّرات والموت الذي قد يكون رابضًا هنا وهناك.

كنت متأكّدًا أنّ المرأة لن تذهب إلى أيّ مستشفى لإجراء العمليّة، وأنّها ستنتظرني حتّى لو تفاقم ألم الخرّاج في صدرها، لكنّني حاولت إقناع نفسي بأنّ لا بأس في يوم إضافيّ لخرّاج في الثدي، بالرغم من أنّ ذلك قد يكون مؤلمًا وكئيبًا.

حين ماتت شريفة مختار عرف مجهول بموتها، وإن كان متأخرًا كما يبدو، وجاء بذلك الصلف الواهم، ليعلق في تلك الصداقة المبهمة معي، ويربطني بصداقة والده الراحل، والآن لا بدّ سمع بموت والده، هذا شيء لا شكّ فيه، لكنّه لم يأت.

كنت مستاء، وبالرغم من ذلك، ذهبت إلى البورد الخشبي لأكتب له خبرًا ونعيًا في الوقت نفسه، ووجدت لدهشتي أنّ شخبطته قد عادت بعد صمت طويل، كان قد مسح كتابات البورد كلّها وكتب بخطّ عريض: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

كتبت، ولا أحس بأنّه يستحقّ أن يعزّيه أحد: عظّم الله أجركم.

وتركت المكان بسرعة لأفسح له مجالًا للردّ إن كان قريبًا ويحوم في المكان.

لقد فكّرت كثيرًا في التلصّص على مكان البورد، أن أقيم قريبًا منه وأرى إن كنت سأقتنص الرجل الذي يأتي ويذهب كأنّه لا يأتي ولا يذهب، وفعلت ذلك مرّتين أو ثلاثًا خلال أشهر، ولم أعثر على أثر، فقد كان كما يبدو يؤثر تلك العلاقة الافتراضيّة ولا يريد أن يهبط بها على الواقع أبدًا، وقطعًا يريد أن أبقى واقعيًّا عند حدّ صلفه وغروره وسؤاله السخيف الذي لم يعد إلى طرحه منذ زمن.

أظنّه جاء في ذلك الليل وذهب، لم تكن ثمّة كتابة على اللوح، ولكن ثمّة رائحة قويّة، لجسد مدهون بالعرق، ولم يغتسل أشهرًا... لقد شممتها بالفعل.

فكّرت في فتاة أحلامه التي فرّت إلى ألمانيا وربّما لم تفرّ، ربّما ليس هناك أصلًا رجل من ألمانيا أو غيرها تزوّجها وهاجر بها، هي فقط حيلة المرأة حين تودّ أن تفلت من ورطة، من جنونٍ ما.

كان من الصعب على فتاة مستقرّة أن تبقى أسيرة متشرّد بلا مستقبل، وحتّى الفتيات المتشرّدات أنفسهنّ، المدلوقات في وسخ الشوارع بلا أسر، ولا أصول تحيل إلى أسر، يطمحن بلا شكّ إلى أن يتزوّجن وينتقلن إلى ستر البيوت ودفئها.

اليوم التالي كان يوم عمليّات شاقّ، والقائمة طويلة ومكوّنة من نساء بأمراض شتّى، أنجزت قسمًا منها وتركت الباقي لزملاء في القسم.

في يوم العمليّات عادة، نصبح آخرين، وجوهنا صارمة، سيقاننا خشنة، ألسنتنا جافّة، ونأتي بصبر طويل جدًّا، نظلّ نحمله طوال اليوم.

أجرينا عمليتي خرّاج في الأماكن النسائيّة المخبّأة، لفتاتين جميلتين، كانت إحداهما مصابة بمرض السكّر الذي يعتمد على حقن الأنسولين، وتتكرّر عندها الالتهابات السيّئة، وعمليّة إزالة كيس مائيّ لامرأة متزوّجة حديثًا وتتعرّض لإساءات بالغة من قبل زوجها بسبب ذلك الكيس الذي كان كما يبدو مزعجًا له بصورة أو بأخرى. بدأنا بإجراء عمليّات تنظيف الرحم، لإثارته من أجل الخصوبة أو لإزالة أدران ربّما كانت عالقة به لسبب أو لآخر.

رفعت مريضة إلى الطاولة وابتدأت إجراءات تخديرها، وكانت صدمتي بالغة حين التقت عيناي بعينيها، كانت سميّة علي، أو سوسو الطرب، المغنّية المزعومة التي خلخلت مفاصل قسمنا زمنًا، وقد أدخلت القسم حديثًا كما يبدو من دون أن أنتبه إلى وجودها، وتم تحضيرها لعمليّة تنظيف الرحم تلك.

ارتبكت فعلًا، مسحت عرقًا سال على وجهي، وتنحّيت لزميل آخر كي يقوم بالإجراء، وخرجت من مجمع العمليّات ألهث.

لم يكن رئيس القسم موجودًا لاستشارته في الأمر، ولا أيّ طبيب كبير آخر يمكنه أن يدلي برأي، كان الأمر صعبًا بالفعل... قرابة العام مرّت منذ أن طردت مفضوحة، وحاولت مرّة أن تعود، وأنقذت أنا القسم في الوقت المناسب، والآن ها هي ليس داخل القسم فقط، هي داخل حجرة العمليّات. كان معنى هذا أن تظلّ ثلاثة أيّام عندنا على الأقلّ، قبل أن تنصرف مرّة أخرى، هذا إن استطاع أحد أن يصرفها.

أسرعت إلى حيث الغرفة الفاخرة، غرفتها التي أسّست من أجلها، ولم يستردّ المؤسّسون أشياءهم منها خجلًا بلا شكّ. كانت مفتوحة، وتشغلها امرأة مهمّة تعمل قاضيًا في محكمة الاستئناف، وتملك صلاحية أن تحاكم حتّى الطير لو أرادت. كانت في حملها الأوّل، وتنتظر ولادة قيصريّة، خلال أسبوع.

كان وضعًا مطمئنًا إذًا، أنّ سوسو الطرب لن تحوم حول تلك الغرفة مجدّدًا، ولن تذهب إلى الجناح الراقي الذي يقع في طرف معزول من القسم، ذلك أنّ أجرة أي غرفة فيه تعادل أيّامًا من إنهاك الجسد لموظّفة في لعبة الجسد مثلها. عمومًا، لا بدّ من حلّ سريع، والذي يبحث عن حلّ يجده في الغالب. سنتركها حتّى صباح اليوم التالي ونتأكّد من أنّها لا تحمل وجعًا أو بوادر التهاب ونخرجها بطريقة أو بأخرى. بحثت عن الممرضة المسؤولة الجديدة بعد أن ذهبت دلال إلى قسم آخر رئيسة لممرّضاته، حدّثتها عن سميّة، وطلبت منها أن تراقب تقلّباتها جيّدًا وتخبرني بأيّ جديد صباح اليوم التالي.

لكنّ الأمر كان مختلفًا هذه المرّة، وانتبهت الى اختلافه بجلاء حين زرت العنبر الذي حشرت فيه المغنية المزعومة مع أخريات شاركنها خطوات إجراء العمليّة لكن مؤكد لا يشاركنها الرؤى والأفكار.

كانت هزيلة، ومتكوّمة في سريرها بلا أيّ بريق من ذلك الذي انتفض ذات يوم عندنا وجمع عشرات الباحثين عن اللذة. لم تعد تبدو امرأة متعة ولا ليل على الإطلاق. سألتها إن كانت بخير.

ردّت: «لست بخير».

وأدارت وجهها إلى الحائط. وكأنّي سمعت ما يمكن أن يكون بكاء حقيقيًّا يأتي من مكان ما.

لم نخرجها من القسم في ذلك اليوم ولا اليوم الذي تلى، بقيت سبعة أيّام تلقّت فيها زجاجتين من الدم، من متبرّعين لا تعرفهم ولا يعرفونها، ولم يزرها خلال تلك الفترة أيّ شخص من أولئك الذين زاروها من قبل وأثّثوا لنا الحجرة الأسطوريّة، ولا آخرون جدد ربّما تعرفت إليهم أخيرًا، ومن ضمنهم الشابّ الذي قالت أنّه زوجها. الشخص الوحيد الذي زارها كان امرأة عجوزًا مغطّاة الوجه لا يظهر منها سوى عينين كئيبتين جافّتين، قالت هي خالتي روضة، التي تقيم في المدينة وأقيم عندها، لكنّ ممرّضة قديمة في القسم أكّدت أن الخالة المزعومة ليست سوى فتحيّة كركارة، المرأة التي كانت مشبوهة منذ الستّينيّات، ولا تزال تعمل في تلك التجارة المحرّمة.

تلك الخالة لملمت لها أشياءها القليلة، واصطحبتها ومضت بها إلى حيث لن تعود مرّة أخرى كما أتصوّر.

# 18

الآن، لم يعد «مجهول» موجودًا في حياتي بالرغم من تأكّدي من أنّه موجود في المدينة، وقطعًا يحوم حول كتابتي في البيت على لوح الخشب، أو في حيّ النور أمام عيادتي، وربّما يأتي إلى قسم النساء والتوليد بلا هدف بعد أن ألغى الهدف منذ زمن.

أنا أيضًا لم أعد أهتمّ به، ولم يعد يشغلني مثل ما كان يفعل قديمًا، خصوصًا أنّ خامات شخصيّته كلّها تكاد تكون اكتملت في ذهني ولم أعد بحاجة إلى المزيد كما أتصوّر، وقبل أن أزيل اللوح الخشبي من مكانه بأيّام، كتبت له:

مجهول... ربّما أسافر قريبًا إلى خارج البلاد، ولن نلتقي أو نتخاطب مرّة أخرى.

لم يردّ، وظلّت الكتابة يومين كاملين مؤطّرة في مكانها، مرّ طائر شارد من تلك الطيور العشوائيّة، تبرّز على الحروف وطمسها.

هذه المرّة، لم أمحُ الكتابة، ولكن محوتحتّى الرغبة في أن أكتب مرّة أخرى، فقد أزلت اللوح من مكانه تمامًا، وألقيت به بإهمال في حوش البيت.

ذهبت إلى عيادتي في ذلك المساء الشتائيّ، عاينت مرضاي، ووصفت لهم ما يريحهم، وعدت إلى البيت خالي البال تمامًا من أيّ شيء قد يربطني بأيّ شيء.

كان مشروع مغادرتي البلاد في الحقيقة قد اكتمل في ذهني منذ زمن وكنت أؤجّل تنفيذه، والآن لن أتأخّر أكثر من ذلك، سأذهب إلى أيّ بلد قد يقبل بي وبخبرتي المهنيّة بحثًا عن مستقبل. وبالنسبة إلى حكاية مجهول والعمّ عثمان تسلية، لا مانع من أن تكون من الماضي الذي ربّما أتذكّره يومًا، وربّما لا يخطر على بالي مرّة أخرى.

حتّى العاطفة الحميمة لم أرد لها أن تلحّ عليّ وتبقيني هناك، وتلك الفتاة الجميلة، ابنة صاحب المصنع التي تعرّفت إليها حديثًا في حفل أقيم في ناد أرستقراطيّ في المدينة، وكان من الممكن أن ننشئ معًا مستقبلًا حتّى لو لم يكن معطّرًا، نعطّره نحن بخيالنا، تخلّيت عنها، تخلّيت بإصرار عن البدايات التي كانت الفتاة تعتبرها نهايات أوّليّة ستقود إلى نهايات كبرى.

قلت لها، وكان اسمها ليلى، وأسمّيها العامريّة في سرّي من دون أن أصرّح بذلك. كانت بالفعل تعجبني واسم العامريّة يعجبني في الوقت نفسه. قلت لها:

«ستجدين من هو أفضل منّي».

إنها الجملة نفسها التي واسيت بها «مجهول» حين طارت فتاته إخلاص من حبّه، وانتقلت إلى حياة عريس ألمانيا أو ربّما لم يكن ثمّة عريس في الأصل، وردّ هو بكلمة واحدة: «لا أظنّ».

العامريّة لم تقل تلك الكلمة، استبدلتها ببكاء صامت استمرّ لحظات وتوقّف، وكنت أطالعه وأتخيّل نغمته الحزينة.

ربّما كنت فتى أحلام أو فتى أوهام لها، بالرغم من عدم وجود أيّ صفة فيّ ترفعني إلى مرتبة الحلم-الوهم، وربّما كنت مجرّد رجل صادفته في الحياة، واستعدت فعلًا لبناء مستقبل معه، بغض النظر إن كان مخضرًّا أو مجرّد مستقبل. لم تطالبني بشيء، ولا حتّى بردّ عواطف كنت نهبتها بشغفي من شغفها ذات يوم، لم أكن اليسع المجنون في الحقيقة لأنّ اليسع نهب من الممرّضة العجوز تراكمًا عاطفيًّا مذهلًا، ونهب حتّى هدوء شيخوختها المفترض واستعدادها لحياة الجدّات بالرغم من أنّها لم تكن جدّة في الواقع. أنا أخذت مجرّد عواطف أيّام لن تؤثّر في مستقبل فتاة يانعة وجميلة وطيّبة، وتوحي بالشعر إن حدث وشغف بها شاعر من أولئك المجانين المهتزّين الذين يحومون حول الجمال عادة، ولا يرتاحون حتّى يكتبوه.

دعوتها وقد هزمني البكاء الصامت قليلًا إلى عشاء أخير في مكان جميل هادئ على شاطئ البحر. كانت ثمّة فرقة إثيوبيّة بألحان ضاجّة، وفتيات رشيقات يردّدن أغنية من أغنياتنا المحفورة في الوجدان، فيها شجن، ووداع أكيد، أنا انتبهت إلى مطابقتها واقعنا وأظنّ العامريّة انتبهت أيضًا لأنّها وضعت يدًا على خدّ وألقت بنظراتها بعيدًا.

أكلنا السمك بأنواعه، وشربنا من حساء المحار الساخن وافترقنا فراقًا جيّدًا، ليس فيه أيّ إضافات أو نواقص تزعج أحدنا إن تذكّر ذلك اليوم في المستقبل...

لم يكن الأمر هيّنًا أن ينهزم إحساس العشق، إحساس الشغف، وإحساس وجود مدينة عشت فيها زمنًا ليس بالهيّن، داخل الدم وحوله. لكن، أيضًا توجد تلك القرارات التي لولاها لما ظهر شيء اسمه الغد، ولظلّ الماضي كما هو يقبض على الأمور كلّها. سأذهب فعلًا، سأترك عيادتي التي أسّستها بتأنٍّ، وعملت فيها بجهد، لزميل حديث التخرّج اخترته من بين عديدين عملوا معي في قسم النساء والتوليد وأحسست بأنّه خامة أخلاق طيّبة ستسير على خطى كنت رسمتها في حيّ النور، وأيضًا يملك ما يمكن أن يسمّى الذكاء المهنيّ، حيث يلتقط المساوئ، وهي في سبيلها إلى الحدوث ليمنع حدوثها، جرّبته في عمليّات صغرى وكبرى، وأجاد. جرّبته في التعامل مع فوضى المريضات والزوّار ورأيته قادرًا على ردمها.

في القسم، سيكون الأمر مزعجًا جدًّا، سيغضب رئيس القسم، سيغتاظ، سيصرّح من بين هياجه بأنّ لّا مستقبل لي إلّا هنا في هذا المكان الذي تدرّبت على العمل فيه، وأنّ أيّ مغامرة أخرى هي مغامرة مرفوضة. ربّما كان على حقّ، وأنّ ثمّة مستقبلًا موجودًا، لكنّ الخطّة التي اكتملت في الذهن لن تكون خطّة لو لم تكن قابلة للتفعيل بإصرار. لن أبقى برغم أنّ مئات وربّما آلافًا من سيّدات المدينة يعرفنني، وعشرات المواليد يحملون اسمي، وتفخر أمّهاتهم أنّهن أنجبن الطبيب المستقبليّ.

لن أسمّي هذا انتزاعًا للذكريات، أو إلغاء لها، إنّما وضعها في خانة الذكريات فقط.

لم أنس أنّ صديقي تسلية كان مدفونًا في المقبرة القديمة للمدينة، وعليّ أن أودّعه قبل أن أذهب، أودّعه وأشكره على تلك القصص الثريّة التي زوّدني بها وقبل ذلك على أنّه عدّل نصّي الغبي الذي كتبته وأنا طالب في الثانويّة، ليؤدّيه على المسرح. لقد كانت هديّة عظيمة قدّمها لي بكلّ تأكيد.

تقدّمت باستقالتي إذًا، وقبلها رئيس القسم على مضض وبصدر لم يكن رحبًا، وكنت تدرّبت معه، ودرّبت آخرين أتوا بعدي، وامتلكت تلك الثقة الكبيرة في أنّني قد أكون ركيزة من ركائز القسم. لكنّه أيضًا فاجأني بنيّته السفر شهرين إلى بلد عربيّ بعيد، ليشارك في تأسيس برنامج خاصّ بصحّة الأمّ والطفل. واحد من تلك البرامج التي بدأت تحصد اهتمامًا كبيرًا في ذلك الوقت واتّسع الاهتمام بها اليوم، وأظنّها تحقّق أرقامًا جيّدة في المحافظة على الأمّهات ومواليدهنّ، والتقليل من الوفيّات الناجمة عن تعقيدات الحمل والولادة. ومعروف أنّ فترة الخصوبة عند النساء هي أكثر الفترات التي يمكن أن تحصد فيها الأرواح.

كان سفره يعني أنّ عليّ أن أبقى أنا في مكانه، أن أغطّي عمله النهاريّ في المستشفى وعمله الليليّ في عيادته الخاصّة، وثمّة أعمال أخرى، بسيطة لكن مدرّة للمال، وهي مراقبة الولادة لسيّدة أرستقراطيّة، تودّ أن تضع في مستشفى خاصّ، والتدخّل جراحيًّا إن اقتضى الأمر، وتلك العمليّات الصغيرة المعتادة، مثل عمليّات استدعاء الخصوبة بتنظيف الرحم، وعمليّات توسيع عنق الرحم، والدمامل وأكياس الدهن حيث وجدت.

كنت مستاء حقيقة، لكنّ الأمر كان ملحًّا ولا مفرّ، وكانت برغم ذلك خطوة طيّبة في مشوار النساء والتوليد أنّني ارتقيت من عيادة حيّ النور البعيدة العامّة التي أعاين فيها كلّ شيء، وأحصل في نهاية المساء على جنيهات الفقر ذات الرائحة الخانقة، إلى عيادة متّسعة مضاءة بكهرباء المدينة المتوهّجة وفي أرقى مكان في وسط المدينة، فيها صالة انتظار واسعة مفروشة بمقاعد دافئة، وغرفة إضافيّة للعمليّات البسيطة، وممرّضتان في زيّين أبيضين نظيفين، وكلّ ما يغري طبيبًا شابًّا أقرب إلى المبتدئين في أن يحلم بوضع مثل ذلك.

لقد عملت بجهد في ذلك المناخ الطبّيّ الاستثماريّ الرائع وكسبت جنيهات كثيرة، لا تفوح منها أيّ رائحة غير تلك التي تنعش حاسّة الشمّ. مضى الشهران ولم أحسّ بأنّ الزمن قد باغتني أو غدر بي، وبأنّ فرصة خروجي من قمقم الشرق القاحل، لتنشّق هواء البلاد البعيدة، والحصول على رزق فيها، قد ضاعت. كان لديّ إحساس غريب بأنّني سأحصل على فرصٍ عديدة وليس فرصة واحدة، وأعني فرصة عمل وفرصة كتابة أيضًا لكلّ ما تراكم في ذهني وسمّيته خامات للكتابة. حين عاد رئيس القسم من سفره مبتهجًا بما قدّمه في شأن الأمومة والطفولة، سلّمته وحدته في القسم، وعيادته الخاصّة النظيفة، والجنيهات الغنيّة التي كانت تنتظره، لكنّه ابتسم، استلم مهمّاته كلّها، ولم يستلم منّي جنيهًا واحدًا من تلك التي تجمّعت في المساءات، ولم تكن قليلة.

كان الشهران إذًا هما زادي الذي سأسافر به إلى بعيد.

عاهدت نفسي بأنّني لن أنسى الهزليّ القديم عثمان تسلية، لن أنسى صداقتي معه، وبناء على ذلك ركبت سيّارتي في أحد الأيّام لأزور قبره... كان الوقت عصرًا وثمّة رياح شتائيّة خفيفة تهبّ دافقة بالقشعريرة. حين وصلت إلى المقبرة القديمة، كان ثمّة رجال كثيرون يدفنون ميتًا، وآخرون قليلون يدفنون ميتًا آخر، ثمّة رائحة قويّة لغياب الحياة في مكان تحييه الأقدام ساعة تشيّع أحدًا، ثمّ يختفي كلّ شيء ويضرب السكون بأوتاده بعد ذلك.

غصت في وسط المقابر التي كان بعضها قديمًا جدًّا وقد بارت شواهده، وبعضها حديثًا لم يتعدَّ الأيّام والشهور، قدّمت عزائي للمشيّعين كلّهم الذين يتبعون بكثافة، والذين يتبعون على استحياء، واهتديت إلى قبر تسلية بسهولة، لأنّني كنت واقفًا حين حفر، وحين ردم، وحين غرس شاهداه. كان القبر لا يزال رطبًا، حيّيت ساكنه وترحّمت على روحه، واستدرت لأمضي لكنّي انتبهت إلى قبر آخر بجانبه بدا لي حفر توًّا، كان أكثر رطوبة ولا تزال آثار أقدام متباينة تحيط به.

مددت بصري إلى الشاهد، وقرأت: «قبر المرحوم عبد المطلب عثمان دفع الله تسلية»...

كان النص يحدّد تاريخ الولادة، وتاريخ الوفاة الذي كان منذ يومين فقط.

إذًا، «مجهول» هنا...

لم أدرِ ماذا أفعل أو أقول، وتزاحمت في ذهني كلّ الأفكار المظلمة منذ أن عرفت أنّ ثمّة أفكارًا مضيئة وأخرى مظلمة، ماذا حدث؟ وكيف مات الولد؟ ومن جاء به إلى جوار والده الذي لم يكن يريده إلى جواره ميتًا بل حيًّا؟، ولكن...

أسرعت أترنّح إلى سيارتي التي كانت في موقف بعيد مخصّص لزوّار المقبرة. لم أكن أقوى على المشي... أحاول الإسراع وأحس بأنّني أبطئ، أعود إلى الوراء، لم أكن أعرف كيف سأحصل على إجاباتي، وإن كانت الإجابات مهمّة فعلًا أم لا؟ وهناك فَقدٌ موجود ولن تعدله أيّ إجابة... فكّرت في زوجة والده، تلك المرأة الصامتة المتكوّمة داخلها، أن أذهب إن ألحّت عليّ الأسئلة

لأحدّثها في الأمر وأستخلص منها إجابة، لكنّي تذكّرت أنّها ليست في المدينة، فقد ذهبت إلى الشمال، إلى البلدة التي جاء بها تسلية منها بعد أن ماتت زوجته الأولى، وعادت إليها الآن حين لم يعد لديها ما تفعله في مدينة خلت من الناس حين خلت من زوجها.

فكّرت في كثيرين ربّما يعرفون ما حدث، وذهبت من فوري إلى حيّ كوريا. حمتُ في كلّ شوارعها تقريبًا وبكيت بصمت حين لم أعثر على مقعد مكسور الظهر في الشارع الطويل الضيّق الذي كان يحرسه رجل مسنّ مبتور الساق ذات يوم. مررت على زاوية المحس، وكانت مغلقة ولا أحد قربها. لم أصادف أيّ شخص أعرفه، حتّى الممرّض الذي أخبرني بموت الأب منذ أشهر عدّة، كان قد ترك التمريض إلى عمل آخر في العاصمة، وألغى الساحل تمامًا.

لن أعرف أبدًا كيف أنهي قصّتي مع مجهول إن كتبتها، الآن أعرف البداية السيّئة وأستطيع أن أعدّلها بحيث لا تصبح سيّئة، لكنّي لن أعرف النهاية أبدًا.

بعد ذلك بأسبوعين، كنت أكملت تجهيز أوراقي كلّها التي كانت عندي، والتي في يد الحكومة واستطعت الحصول عليها بطريقة أو بأخرى، ركبت الطائرة ولا أعرف أبدًا أيّ مستقبل ينتظرني، لكن حين هبطت في الدوحة، وتعرّفت إلى عالم جديد مدهش ومبشّر، أيقنت أنّني سأكتب كلّ الأفكار التي كنت أملكها ولم أستطع أن أدلقها على الورق قط.